CASR
Center Of Anthrostrategic Studies & researches

ملف بحثي

العالم بأعين المقاومة

(من أجل إستراتيجيا للسياسات الخارجية)

رئيس قسم الهندسة الإستراتيجية
عبد العالي العبدوني

مركز الدراسات والأبحاث الأنتروستراتيجية
Info@casrlb.com www.casrlb.com

العالم بأعين مقاومة

من أجل استراتيجية للسياسات الخارجية

مقترب تنظيري جديد

بين يدي الموضوع:

يظل من العجيب والمثير للانتباه أن يضحي هيغل أحد أهم الرموز الفكرية للرؤية العولمية كما تتبناها الولايات المتحدة الأمريكية، فموضوعة " نهاية التأريخ " التي دافع عنها المفكر فرنسيس فوكوياما آخذا تصور هيغل بعين الاعتبار، لم يكن من باب المصادفة والتأثر الشخصي بهكذا رؤية، بل لأن هيغل نفسه لم يناقش نهاية التأريخ إلا بعد أن عاين هزيمة بروسيا أمام جيش نابليون بونبارت، عندما اكتشف بأن لحظة تأريخية جديدة تتولد منهية الإرث الملكي والإمبراطوري في نفس الآن، فبعد معركة ييينا خلص إلى أن كل البنى الفكرية السياسية العتيقة قد انتهت اعتبارا وتأثيرا في الحراك الدولي بعد أن نجح نابليون في الانتصار على أقوى جيش أوروبي في حينه وهو الجيش البروسي، وبالتالي لا يمكن للصراع العالمي أن يستمر بعد هذه الهزيمة التأريخية، إلا إذا تحولت الأمم الأوروبية إلى تبني الإرث الثوري الفرنسي، فنهاية التاريخ عند هيغل كانت نهاية إيديولوجيا وبنية سلطوية متحكمة لفائدة أخرى متولدة تعيش بدءا تأريخيا بعد هذا الانتصار، لذلك لم يتفاجئ المتابع الدقيق والحصيف حجم استحضار " هيغل " في كتاب فرنسيس فوكوياما، لأن ثمة متوازي تأريخي

سعى هذا المفكر للدفاع عنه، وهو أن سقوط الاتحاد السوفياتي هو مؤذن بسقوط الإيديولوجيا المواجهة للفكرة الليبرالية، وبالتالي فالعالم بعد هذا الانهيار التأريخي والمفاجئ، لا يمكنه أن يدخل حرم الحركة العالمية إلا بتبنيه لنفس التصور الليبرالي الأمريكي، (1) فالمواجهة الأساس تنطلق من نفس الأرضية الفكرية الغالبة، أو لنقل بأن المغلوب مجبول على تقليد الغالب وفق التوصيفة الخلدونية.

لكن واقعا كلا المفكرين أخطآ الطريق فالفترة الزمنية اللاحقة لما بعد معركة بينا أدت إلى هزيمة نابليون بونبارت وأكدت على ديمومة الخصوصيات الهوياتية الفاعلة في الصراع الدولي والتي دفعت نتيجة انسداداتها إلى ثورة جديدة عكسية تماما للبنية الفكرية الليبرالية التي كانت تقبع في عمق الثورة الفرنسية، وهي التي أدامت الجرح التأريخي الغائر في الحلم الهيغلي، إلا أن فوكوياما بعد انهيار أهم كتلة دولتية ممثلة للماركسية، اعتقد بأن التأريخ يأخذ مساره من جديد نحو نهاية جديدة وأكيدة، إلا أنه بدوره وعكس هيغل اكتشف خلال سنوات قليلة بأن حلمه كان أقرب إلى سكرة " انتصار " منها إلى قراءة عميقة، فالعالم كان يعيش على وقع ولادة كتل جيوبولتيكية جديدة جمعت من " الهجانة " و " المزيجية " الشيء الكثير، صارت معه الخطابة الانعزالية الأمريكية تتصعد أكثر من ذي قبل. (2)

بمعنى أن القوة الأمريكية المقبولة عالميا " الهيجيمونيا " التي تم التطبيل لها لسنوات، عادت لتنقلب القهقرى داعية إلى مزيد من الانعزالية أو تدبير للتحديات بمنطق عملاني أكثر

---

[1] - Francis Fukuyama : la fin de l'histoire et le dernier homme,

[2] -في دراسة صدرت مؤخرا للباحث والتر راسل ميد أجرى هذا الأخير قراءة نقدية على أطروحة نهاية التأريخ كما طرحها المفكر فرنسيس فوكوياما، بمراجعته للمتحولات الجيوبوليتكية التي طرأت أخيرا وخصوصا في منطقة الشرق الأوسط وآسيا، مما حذا به إلى القول بأننا لسنا أمام حالة نهاية التأريخ بقدر ما صرنا في مرحلة " الغسق " التأريخي، لكن نحن نعتبر ما يقرره الباحث ميد بالغسق هو عين البدء التأريخي الذي نتحدث عنه، لمزيد من التوسع مراجعة دراسته

Walter Russell Mead : the return of geopolitics , the revenge of the revisionist powers, foreign affairs, volume 93 number 3, may/june 2014, pp 69 – 79.

تركيزا على الكلفة بالتخلي عن ملفات معينة لفائدة أخرى أكثر ربحا استراتيجيا، كما لو أن الولايات المتحدة ماتت مع الكتلة الشرقية لكن بأثر لاحق.

فواقعا مفاعيل البنى الفكرية للحرب الباردة انتهت قبل سقوط الدولة السوفياتية باثنى عشر سنة على أقل التقادير، بمناسبة حدوث الثورة الإسلامية في إيران، لأنها اشتغلت على تصور عولمي جديد يقع على طرفي نقيض الكتلتين السياسيتين الماديتين، سواء تلك القابعة في الدياليكتيك الهيغلي الليبرالي أو التي تأصلت على الدياليكتيك الهيغلي المقولب ماركسيا، فأضحت أقرب إلى التصور الهيغلي المقولب تعاليا. (3)

لأن البعد الأرواحي للثورة الإسلامية جعل منها درسا تأريخيا جديدا يدخل بعنفوان غير مسبوق إلى حركة العالم بعد متحول الحرب الباردة، فشعار " لا شرقية لا غربية بل إسلامية إسلامية " ليس بشعار يأخذ الألباب، بقدر ما هو إعلان ولادة خط سياسي يريد أن يتحكم في السير العالمي، أعاد إدخال العالم برمته في مرحلة اللايقين وأنهى حلم اليقظة التي تتقوم على معامل الاستقرار الاستقوائي للكبار. (4)

ولذلك تظل قراءة الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو للثورة الإسلامية استباقية كما هي عادته في أكثر من تصور فلسفي سياسي أبان عنه بمناسبة دروسه التي ألقاها في كوليج دو فرانس، حيث تنبأ بظهور مفهوم " الدولة المقاولة " كنتاج للتصور النيوليبرالي، والسياسة الإحيائية، وغيرها من التصورات.

---

[3] -سوف نفرد بحثا مستقلا لمدارسة التوافقات الهيغلية مع الرؤية المتعالية للفلسفة الثورية الإيرانية، كإحدى عناوين البدء التأريخي العالمي.

[4] - Robert Gilpin: War and Change in World Politics, Cambridge University Press, 1981. “ By the 1980s this Pax Americana was in a state of disarray because of the differential growth of power among states over the previous few decades. The proliferation of nuclear weapons, the rise or reemergence of other centers of economic power, and especially the massive growth in Soviet military strength had weakened the political foundations of the international system established at the end of World War II. Events in Iran, Afghanistan, and elsewhere signaled that world politics were entering on a new and uncertain phase.” P.231.

فالروحية السياسية التي صرح بها ليست نزقا فلسفيا جاء ثمرة صدمة حدث كبير، لأنه لم يتجه إلى هكذا بناء مع غيرها من الحراكات الشعبية التي عرفها العالم، كما أنها لم تشكل ولا مرة واحدة في اللحظة الأنوارية آلية لتعقب وتحليل الشيء السياسي ومحاولة فهمه، بل المستحكم كان دائما ذلك الشأن الفيزيقي الذي يتحكم ليس في ظهورات هذا الشيء بل أيضا في محاولات فهمه.

مؤكدا بأن الشيء المغيب منذ عصور النهضة والأزمات الكبرى للمسيحية كان هو الروحية السياسية.

Rechercher au prix même de leur vies cette chose dont nous avons, nous autres, oublié la possibilité depuis la renaissance et les grandes crises du christianisme : une spiritualité politique (5)

هو اكتشاف معرفي يلقاه، وخصوصا أنه كان في حرج من الدفاع عن الحكومة الإسلامية كفكرة معلقة في السماء على الطريقة السينوية، ومع ذلك ببحثه في مبانيها وأهدافها لم يجد بدا من دعمها، هذا الإكتشاف الذي كان مغيبا في المباحث الفلسفية السياسية النهضوية منها والإكليروسية المسيحية، وهو بعد الروح في رحم السياسة.

ففيما يخص تحرجه من دعم الحكومة الإسلامية كفكرة مطلقة يقول ضمن نفس النص " أتحرج من الحديث عن الحكومة الإسلامية كفكرة أو مثال، لكن بوصفها إرادة سياسية فقد بهرتني، بهرتني في مجهودها لتسييس . في مقام الجواب على المشاكل القائمة . بنى متداخلة اجتماعيا ودينيا، لقد بهرتني في محاولتها أيضا أن تفتح في السياسة بعدا روحيا "،

Je me sens embarrassé pour parler du gouvernement islamique comme idée ou même idéal. Mais comme volonté politique, il m’a impressionné dans son effort pour politiser, en réponse à des

5 - Michel Foucault : a quoi rêvent les iraniens P 294. in DITS ET ECRITS tome 2 QUARTO GALLIMARD éditions 2001.

problèmes actuels, des structures indissociablement sociales et religieuses ; il m’a impressionné dans sa tentative aussi pour ouvrir dans la politique une dimension spirituelle. (6)

وهو سعي فلسفي أراده ميشيل فوكو أن يدخل أعمال الفلسفة السياسية الغربية، والغريب في الأمر أن المنتوج الفلسفي السياسي الأنجلو أمريكي مهجوس نفسه بهذا البعد كالمجهود الفلسفي عند ليو شتراوس وبلوم وغيرهما كثير، ولم يعمد اللوغوس إلى شجبه، مما يتبين معه بأن الموازين العقلية عن الغرب مختلة وبشكل لا رجعة فيه، إلا إذا تخلص من النظرة الإستعلائية وتواضع لينتقد ذاته.

لذلك فإن فوكو يكون قد أحدث ثورة كوبرنيكية في البناء الفلسفي الغربي بإدخال هذا الشيء الغير المرغوب فيه أبدا وهو " الروحية " وطبعا كان مصيره فكريا كمصير كوبرنيك على محرقة العقل الغربي، صحيح أنهم لا يستطيعون تجاوزه لأنه شكل لوحده مدرسة تأريخية عصية عن التجاوز، لكن لا بأس من إذلاله في هذه الحيثية بالذات، وهو ما سوف نراه في القراءات النقدية حيث وصل بها الحد إلى جعله في مصاف الصبية الأغرار الذين لا يستوعبون ما يحدث حولهم.

فالروحية السياسية التي أبان عنها فوكو هي تلك الشأنية الماورائية المستحكمة في الخروج الفيزيقي لها، بمعنى أنها المحرك المعرفي الماورائي المتحكم في الظهورات الفيزيقية، وهذا عين ما يحاول العقل الغربي تجاوزه ومحاربته، فالماورائيات ما هي إلا أساطير مدخولة بالهوى والرعب الأزليين، وبالتالي لا يسمح لها بالتصرف في الفضاء العام، بل هي من تدبيرات هذا الفضاء حيث لا يسمح لها إلا بالتواجد الشخصي وبضمان أمكنة العبادة، لكن لا حق لها في تدبير الفضاء العام، لذا لم يكن مستغربا أن تكون مجمل المؤاخذات على

6 - Michel Foucault : a quoi rêvent les iraniens p 294.

النظام السياسي الإيراني أنه نظام ملالي وآيات الله، وبالتالي لا يمكن الحديث عن نظام سياسي يتحرك وفق معارف يصنفونها تيوقراطية.

إذا الأزمة الفوكالدية ليست في سلامة البناء الفلسفي لميشيل فوكو، بقدر ما هو دعم لتوجه تيوقراطي حرص اللوغوس الغربي على دفنه لغير رجعة.

سؤال الروحية السياسية كما تتمثل في طروحات ميشيل فوكو هي عملية دمج بين الزمني والقدسي في الشأنية السياسية لكن بتراتبيات معرفية خاصة، تأتت له من خلال استقلال القراءة للمباني الدينية وللإكراهات المادية السياسية، بمعنى أن المبنى الديني ليس معطى معياري صرف بقدر ما هو فكر يتحرك احتكاكا بالواقع، وأن هذه الروحية السياسية ما هي إلى تشخص الفكر الديني في الفضاء العام بإكراهاته الواقعية.

إلا أن المعضلة الأساس في العقلية الغربية هو محاولتها في رمي التصورات السياسية التي لا تريدها تحت السجاد، دون أن تنتبه إلى أن الأمر أكبر من أن يتم التعامل معها بهكذا مسلكية، فالروحية السياسية التي تتحرك في أشياء العالم لا بد وأن يكون لها دور في مراجعة المداميك التصورية الكبرى لحركة سير العالم.

فعندما نعود إلى التأريخ السياسي نجد الثورة الفرنسية سنة 1789 شكلت منعطفا تأريخيا أعاد لملمة الكثير من التصورات الحقوقية السياسية، وهدد الكثير من المرتكزات " الشرعية " في القارة الأوروبية، مما أدى إلى تسارع التغيرات الكبرى للتعاطي مع هذا المتحول، بعد أن تحولت إلى قدرة معرفية عابرة للحدود الويستفالية ومؤثرة في الأثاث الجيوسياسي الأوروبي فالعالمي لاحقا.

نفس المقتضى متحقق بالقوة مع الثورة الإيرانية خلال سنة 1979 والتي شكلت بدورها منعطفا جديدا لإعادة رسم بوصلة شبه كونية هزت أركان تصورات استقرارية انبنت على

الإرث الثوري الفرنسي، فمن اهتزاز شرعية أوليغارشيات الملكية إلى اهتزاز شرعية أوليغارشيات النظام العالمي الجديد هذا هو مصيرها.

فالخلفية الإيديولوجية للثورة الإسلامية تقوم على روحية ليست سياسية وحسب، بل واستراتيجية بالأساس تريد أن تأتي على المباني المعرفية الكبرى التي تتحكم في سير العالم، ومن جهة صمود الثورة أمام الهجمات العسكرية المبكرة بتوسط العدوان الأمريكي في ظل نظام صدام حسين، جعلها وعلى المستوى الدفاعي تحقق مبدئيا نفس الانتصار البونبارتي في معركة بينا، بانية ردعا وجوديا للبنية السلطوية العليا المهيمنة على المنطق العالمي.

ومن هنا نكون أمام حالة بدء تأريخي سايرت الاضمحلالات المادية للتصور العولمي لفترة من الزمن، لكي تبني عليه انطلاقة جديدة، كما لو أنها نسق مجاور تضايفي لا يخلو من ضدية مع الحركة العالمية، لكنه يتحرك بجوارها دون كبير اصطدام يأتي على " بيضة " العالم.

فالسؤال الأساسي للنسق، أي نسق هو سقف ميكانيزمات تفاعله الذاتي ارتكازا على على معاملاته الداخلية وفواعله الآمرة، بحيث أن تسلسل عمليات الانفعال نتيجة هذا الحراك تؤدي إلى وقوع تغير أساسي ليس فقط في بنية النسق، بل وأيضا في شاكلته الخارجية.

والثورة الإسلامية بما هي فكر إنساني يقع على نقيض مسار تأريخي يفرض من فواعل خارجية، لا يمكن التعاطي معها إلا كنسق لا كحركة أفكار، لأنها تقف هوياتيا في وجه هذا السير.

فهي مهجوسة بمقام التشخص الذاتي أو الهوية البنيوية النسقية والتي تتحقق " في الموضع الذي يمتنع فيه جواز الصدق على الكثيرين " (7)، مع لحاظ أن تشخّص الذات

---

[7] - غلام حسين إبراهيم دياني: حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي الجزء الثاني، دار الهادي، الطبعة الأولى 2001،الصفحة 344.

يتحقق بالأعراض التي تنجّر إليها بالمحايثة والمساوقة والمساواة للموجودات الخارجية، فتكون ال " أنا " متأثرة ومأثورة بها، مما يجعلها متفردة عن غيرها من " الأنات " الأخرى. صحيح أن الذات العارفة لا يمكن أن تقوم إلا ب " أنا " قائمة الذات، مما يجعلها جوهراً إنسانياً بالضرورة، إلا أن هذه الأنا تكون عرضة للمتغيرات فيظل الجوهر الإنساني المشترك متحقق خارجاً مع دواخله والمتغيرات الطارئة عليه، فكيف يمكن التحدث عن التجوهر المعياري الذي نبحث عنه، والحال أن المتحقق واقعاً هو التشخّص بتمشكل الأنا مع المعارف الخارجية؟

تعي جيدا بأنها تعيش في محيط اجتماعي دولي مركب ومعقد العلاقات، إلا أنها وكأي نسق تحافظ على " المائز " الذي يحكمها (8) بتوسط ما يسميه السوسيولوجي الألماني نيكلاس لوهمان بتقنية الإنتاج الذاتي autopoïèse بما هي تراكم تفاعل الوحدات الداخلية فيما بينها إلى درجة خلق شبكة، والتي تستمر في التفاعل فتولد تفاعلات جديدة بشكل لا نهائي وشبكات لا نهائية بدورها، للوقوف في وجه المتحولات الخارجية.

فسقف التشخص الذاتي عند الثورة الإسلامية هو معامل وجودها في المحيط المعقد الذي تتعايش معه بمخالطة دون ممازجة.

وسوف نقسم الموضوع إلى عنوانين كبرويين، نبحث في الأول الوجود المقاوم في العالم كدازين جديد وعمق تداعياته على الديناميات الكبرى (الفصل الأول)، بعدها سوف نرتفع إلى بحث إواليات الوجود الدولتي مقترحين جدلية التعالي / التداني بدلا من ثيمة " البقاء " التي انغرست عميقا في المدرسة الواقعية بمختلف تنوعاتها كلاسيكية، أو حديثة أو بنائية (الفصل الثاني)

الشيخ شفيق جرادي: مقاربات منهجية في فلسفة الدين، منشورات معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية، الطبعة الأولى 2004.

8 - Danny Boisvert : Niklas Luhmann : la théorie des systèmes sociaux, « Les systèmes sociaux des sociétés modernes, peu importe leur complexité et leur durée dans le temps (que ce soit l'économie, les systèmes légal, politique ou religieux, les organisations, les groupes sociaux ou les interactions) assurent leur identité et leur autoreproduction (leur autopoïèse) en préservant leur différence par rapport à un environnement complexe » p. 58, Revue Aspects sociologiques, volume 13, no 1, août 2006

الفصل الأول: الوجود المقاوم ومتحولات العالم أو مسألة بداية التأريخ:

سوف نعمل على مقاربة موضوعة الدازين المقاوم أو وجود المقاومة في العالم، على ضوء المتغيرات الدولية القائمة الآن وهنا، وسوف نسعى إلى مقاربة الصراع الأساسي بوصفه ملاكا كليا، (المبحث الأول) بعدها ندرس معالم بداية التأريخ الجديد لولادة روح عالم جديد كميتا قانون عالمي.

المبحث الأول: الصراع الأساسي بوصفه ملاكا كليا:

من أهم ميزات العالم الجديد بعد انتهاء الحرب الباردة، أنه تحرك عميقا في التحديات التصادمية إلى أن صار على حد تحول الوجود المائز إلى وجود معمم، مما دفع الكثير من الدول في العالم والتي ترتخي أمام تأريخها بوصفه الطاقة الأساس، والمكنز الذي لا يمكن التنازل عنه، إلى دخول حلبة الصراع الوجودي حتى لا تقع في تماهي يأكل من هوياتها الأساس لفائدة حقيقة مصطنعة إسمها العولمة، بوصفها إيديولوجيا " الخلاص " الرائي إلى إعادة هندسة العالم وفق تصور كبروي موحد، قائم على ثلاثية الإقحام للجميع في كلية التواصل الدولي، والاعتماد المتبادل بين كل الموجودات العالمية، وحرية الحركة الاختراقية.

طبعا السياسة العولمية صارت على الأرض لا يمكن الفرار منها من جهة التشكيك في نواياها، بل أضحى من اللازم مواجهتها بتوسط منطقها الداخلي، أي التعولم المضاد وفق ما يخدم المصالح الحقيقية والمشروعة للقوى الإقليمية، ونحن في هذه الورقة البحثية سوف

نبحث موضوعة التعولم المضاد بأفق وجودي أقرب إلى الفلسفة الاستراتيجية، منه إلى الدرس الفلسفي المحايد.

فعندما شن نابليون بونبارت معركته الشهيرة على الجيش البروسي، كان يتحرك بأجندة استعمارية لا تخلو من حلم ميترنيخي، إلا أنه ألبسها لبوسا حقوقيا عالي الجودة، مما جعل الانتصار الكبير الذي حققه يذهب عميقا في العقل الويستفالي مؤذنا بنهاية التأريخ الهيغلي وبتحول الحرب إلى عملية سياسية وفق التفصيلة الكلاوسفيتزية.

واقعا هو لم يكن مدركا بأنه يفتح بابا كبيرا جديدا في التأريخ الغربي بوصف المعركة الدامية التي قادها هي ذات حمولة حضارية، قلبت موازين الشرعية والمشروعية السياسيتان رأسا على عقب مانحة للشعب مكنة " تقرير مصيره " في قلب الإمارات والملكيات المتهالكة كما أوراق اللعب، كما رفعت عاليا الحس القومي الذي لم يكن متأصلا من أساسه في قلب القارة العجوز على يد الفيلسوف فيخته الذي أنهى الحالة البونبارتية كحالة تقدمية إلى مرحلة رجعية لا تتجمل إلا بأخلاقيات الملكيات والإمارات البائدة، إلا أن الحركة الدائرية وكأية حركة دائرية لا يمكنها أن تكتمل بدون دوران كلي يعود إلى نقطة البدء فتأتي على الملكية الفرنسية بدورها، مصداقا للقاعدة المتعالية " كما تدين تدان "، فديناميات الصراع المسلح التي عرفتها أوروبا بعد معركة بينا لم تكن واقعا إلا استدراكا لعملية ثأر مخفي ذي حمولة قومية، هزت أركان التوازنات القارية، وساعدت في رسم دول هي أقرب إلى المرايا المكسرة كما ينوه إلى ذلك السوسيولوجي الأمريكي شالرز تيلي في بحثه " بناء الحرب بناء الدول كجريمة منظمة " فتتالي المعارك في القارة الأوروبية أدت إلى ارتفاع الحس القومي، ودخوله مجال الفعالية الجغرافية مما أدى إلى الاستمرار في المعارك من أجل بسط سيادة على النظائر البشرية إن لغة أو إثنية ورسم الحدود الدولتية، حيث ساهمت الحرب في ضمان التوسع والحماية من العدوان الخارجي، بعيدا عن الترسيمات القروسطية التي كانت أقرب إلى نوادي

سياسية مغلقة لها بطاقة ولوج واحدة هي الولاء للشخص الحاكم. لأن الحرب التوسعية كانت تتحرك بهاجس الحماية البعدية وهاجس الحماية كان يؤدي إلى بناء الدولة حكما.

إذا معركة بينا مما رفعته من شعارات وضعت " مقدمات " تصور استراتيجي جديد لم يكن معهودا في القارة العجوز، صحيح أنها أتت على فرنسا نفسها، لكنها بالفعل شكلت قطيعة معرفية مع السابق من التصورات.

وواقعا ما حاولت الإدارة الأمريكية القيام به في حرب الخليج الرامية إلى إسقاط نظام صدام الحسين تحت ثلاث لافتات أساسية، نزع أسلحة الدمار الشامل، وإسقاط نظام سياسي داعم للإرهاب، ونشر الديموقراطية. لم يكن الغرض الأساسي منه إلا قلب موازين تدبير الشأن السياسي في مجمل المنطقة العربية تحت عنوان " الانتقال الديموقراطي " وإنهاء ما تسميه المدرسة السوسيولوجية الأمريكية بالمجتمع البريتوري.

فمشروع " الشرق الأوسط الكبير " بما هو مشروع استراتيجي أمريكي يرمي إلى ضمان الانتقال الديموقراطي وإنهاء العنت السياسي بهذه المنطقة، كان لبوسا للمرحلة التقسيمية الأساس، وفق ما توافق على تسميته بالسيناريوهات الخداعة.

ذلك أن مفهوم " الشرق الأوسط الكبير " الذي طرح من قبل الإدارة الأمريكية لا يهم الحيز الجغرافي التأريخي أي منطقة الشرق الأوسط كما رسم معالمها سايكس بيكو، بل الرؤية الأمريكية رائية إلى مجمل العالم العربي بوصفه شرق أوسط كبير بالإضافة إلى آسيا الأدنى وتركيا وجمهوريات آسيا الوسطى، والتي بلورتها الإدارة الأمريكية واعتمدتها بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 كمفهوم أوسع للتعبير عن الشرق الأوسط (9)، والذي أطلق عليه

---

[9] -طبعا مراكز الأبحاث الأوروبية تتحرج من هذا التوصيف إلا أنها لا تخالفه من حيث المبدأ فاكتفت بالتحدث عن منطقة MENA بوصفها أحرف أولية ل MIDDLE EAST AND NORTH AFRICA، ساعية إلى رسم خطاطة استراتيجية موحدة تشمل كل هذه المنطقة.

اصطلاحا (الشرق الأوسط الكبير) ويضم هذا المفهوم الجديد فضلا عن الدول العربية، كلا من إيران وتركيا وباكستان وأفغانستان وجمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز.

ويتقوم المشروع بالأساس على إعادة رسم الخارطة السياسية بهذه الدول لكي تتواءم مع المجهود الأمريكي، عن طريق إعادة تقسيمها بشكل يسمح بتدبير الجزئيات الجغرافية الناتجة عن التقسيم بطريقة أفضل، وأكثر إذعانا للمخطط الأمريكي، وإن كانت الإدارة الأمريكية أدارت هذا الملف على أساس أخلاقي بحت.

حيث إنها قدمت ورقت أساسية بهذا الخصوص في اجتماع قمة الثماني الصناعية سنة 2004 بواشنطن بانية هدفيتها على:

تشجيع الديموقراطية والحكم الصالح.

بناء مجتمع معرفي.

توسيع الفرص الاقتصادية.

لكن هذه التقدمات القابلة للتصريف إعلاميا لم تكن هي المدار الاستراتيجي الأساسي الحقيقي للولايات المتحدة الأمريكية، لأن الحكامة الصالحة لا تتأصل عندها إلا بعد إعادة رسم الخارطة السياسية للدول في منطقة الشرق الأوسط الكبير، ما دامت تعتبر بأن التعدد الإثني (حقوق الأقليات) والتعدد الطائفي (حقوق الأقليات الدينية) تظل مهضومة واقعا في التدبير السياسي.

طبعا هذا الترسيم الجديد يحمل أكثر من هدف:

الهدف الأول: هو إضعاف الدول القائمة في الجغرافيا المعنية بشكل يسمح لإسرائيل ولأوروبا بحرية حركة استراتيجية أكبر، خصوصا بعد توقيع الاتفاق الأساس بين الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية المسمى بالسوق العبر الأطلسي.

الهدف الثاني: التخلص من خطوط التماس المؤسسة إن على خلفية إثنية أو طائفية، وإعادة ترسيم الحدود على أساسها بدعوى أن هكذا سلوك سيجلب الاطمئنان للمنطقة، يقول الباحث رالف بيترز " في كل حالة من الحالات، تتبدى خلال العملية الافتراضية لإعادة رسم الحدود صلات عرقية أو شعور طائفي، ويمكننا الآن أن نقارن الخريطتين المرفقتين (الحدود الحالية والحدود المقترحة) لنشعر شيئا ما بالأخطاء الكبيرة التي تحفل بها الحدود الحالية، إن تصحيح الحدود بشكل تعكس في قدرة الشعوب هو أمر قد يكون مستحيلا اليوم، لكن لأمد ما، وما يرافقه من دماء لن يمكن الحيلولة دون سفكها ستنبثق حدود جديدة طبيعية " (10)

لذا فإن هذا الباحث يرى بأن الخارطة السياسية المثلى للشرق الأوسط الجديد تنبني على تقسيم هذه الدول، بشكل يضمن " الاستقرار " والتي لا تتوقف حكما في منطقة الشرق الأوسط بل ستنجر إلى ليبيا ومجمل دول الشمال الإفريقي.

الهدف الثالث: دخول الوهن الاستراتيجي للدول المقسمة، لأن ضعفها سيكون أشد في مواجهة أي مخطط أو ترسيم في المستقبل.

الهدف الرابع: قهر الهويات الكبرى في هذه الدول والسماح بنشوء هويات فرعية فوق دولتية، تمهد للدولنة العرقية، كما في سعيهم الجاد لإنشاء دولة كبرى للأكراد، وللباشتون ولغيرها من الإثنيات أو المذهبيات. (11)

---

[10] -رالف بيترز: حدود الدم كيف سيبدو الشرق الأوسط بحالته الأفضل ؟ ترجمة علي الحارس ضمن الشرق الأوسط خرائط جديدة ترسم، عن مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، سلسلة ترجمات الزيتونة الرقم 74، بيروت، يناير 2013، الصفحة 27. (بقيت الإشارة إلى أن رالف بيترز ضابط عسكري متقاعد لكن لأرائه مرجعية في الدوائر الأكاديمية العسكرية الأمريكية)

[11] -تراجع المفكر الاستراتيجي باراغ خانا عن إصدار كتابه حول إعادة ترسيم خارطة العالم تحت عنوان remapping the world بعد أن أعلن عنه، ربما المستجدات الكبرى كانت سببا واضحا وراء ذلك، وهو يعتبر من المفكرين الاستراتيجيين الذين تنبؤوا بأن العالم سيضحي ثلاثمائة دولة.

بمعنى أن خلاصة هذا المشروع هو خلق جغرافيا إذعان بالمطلق غفلا عن الأنظمة السياسية القائمة والتي قد تزول إثر تنفيذ هكذا مشروع. (12)

ومن ينظر عميقا في رزمة الخطابات الأمريكية خلال حرب الخليج الثالثة يرى بأنها جاءت استكمالا لحرب الخليج الثانية والمتعلقة بتحرير الكويت من الاحتلال العراقي، فثمة تطابقات في مصدر صناعة القرار على ضوء الحربين معا، كما أن حرب الخليج الثانية عرفت الكثير من الانتقادات لأنها كعملية عسكرية في العقلية الأمريكية كانت تستلزم ليس فقط تحرير الكويت، بل السعي إلى إسقاط نظام صدام حسين إلا أنه ولتوقف العمليات القتالية بعد تحرير الكويت دون إسقاط النظام السياسي، تناسلت الانتقادات سواء داخليا أو خارجيا بوصفها أول حرب لم تنته بالانتصار، كما لو أنها عملية عسكرية تائهة لم تعرف تحديد غايتها الأساس ووقعت في عرض الإرث الجاكسوني الذي لا يرى للحرب إلا نهايتين إما انتصار أو هزيمة ناضحتين.

فالجهد الأمريكي استكمال للخطاطة المعرفية التي دافع عنها نابليون بقوة السلاح، إذ أنها تحركت في كسر الأبنية السياسية العميقة المتحكمة في المنطقة، طبعا لسنا ندافع عن الأبنية السياسية التي تمخضت بالطغيان والاستلاب التأريخي في أحلك صوره، بما هو جعالة شقية تسكن المنطق التحكمي، لكن نعمد إلى توصيف الخلفية الحقيقية للحراك الأمريكي.

لذلك لم يتوقف البحث الغربي عند كل منعطف جيوستراتيجي جديد يحدث، عن الدفاع عن " استمرارية التأريخ " من جهة ربط التحولات بالملاكات التأسيسية لليبرالية السياسية الكلاسيكية، هي بوصلة معرفية كثيرا ما تتفلت فيتم التسارع للقبض عليها مجددا.

---

[12] -واقعا هذا ما بدأنا نعاينه في الدول التي كانت موضوع " الربيع العربي " حيث الخطاب الانفصالي انفتح أكثر وصارت إمكانية الحكم الذاتي تسير على الأرض وبقوة السلاح أيضا.

ليزداد الحرص – ما دام الإرث أوروبي قاري – على كسر المرايا السياسية أكثر مما هي مكسرة، أو ما يتوافق على تسميته ب " تفتيت المفتت " لكن الخاصية اللملمية للعقل الأنجلو أمريكي لا ترى تولدا إلا من قلب الهويات التحتية بوصفها الضمانة الأساس لمبدأ الطاعة العولمية، بمعنى أن الكسر يكون ملحقا بخاصية ضمية، تكفل الصراعات البينية إلى الأبد، ورجوع المنطقة إلى ما قبل اللحظة الويستفالية، معارك أمراء وانهيار الولاءات الكبرى وتعويضها بولاءات تشخصنية.

إلا أنه وعلى ضوء الحراكات الاجتماعية القالبة للأنظمة والتي عرفتها المنطقة العربية جعلت الأبحاث والدراسات الأمريكية تتناسل لتصل إلى خلاصة واحدة كبرى وهي أن المنطقة تعرف لا يقينا وهذا المقصد اللفظي الذي تكاثر استعماله يرمي إلى معنى واحد، وهو فقدان السيطرة على المتحولات الاستراتيجية داخل هذه الدول الثائرة، وبأن تحديد ملامحها لن يتحقق إلا بعد نجاح إحدى المشاريع الاستراتيجية الدولية المتصارعة داخلها، والولايات المتحدة لم تعد ممسكة بكل الأوراق.

ولهذا فإن السياسة الخارجية الأمريكية وكذا حراكها الاستراتيجي بدا مهلهلا في هذه المناطق، وأضحى الغموض هو الغالب على تصوراتها، وهي مكنة تأريخية كبيرة لركوب الموجة وإحداث منعطف أساسي في المشهد السياسي لهذه الدول، بخلق مشاتل " فكر استضعافي مقاوم " على الأقل معرفيا بتنسيق مع الأحزاب السياسية وتمثلات المجتمع المدني هناك، وهي عملية سهلة جدا لأن الوقوف في وجه المشروع الأمريكي ظل خطابا ناضحا، مما يجعل من التشبيك أمرا هينا في ذاته يبقى فقط حسن التشخيص للجهات التي يتناسب خلق جبهة ممانعة معها، والسعي إلى ضرب أوكار الاستخبارات الأمريكية فيها، لأن هكذا فعل سيتحول إلى " عمل وطني " يسجل حقيقتين: الأولى بأن اللايقين الأمريكي أضحى نهائيا، والثانية، بأن ثمة تكتلات سياسية ستقفز إلى القمة لأن وطنيتها جعلتها لا تخاف من الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا سيؤدي إلى تضعضع أساسي للفعالية الأمريكية.

وخصوصا إذا ما تم إجراء دراسات وأبحاث للتنظيمات الإرهابية في مصر وتونس وليبيا والتي لها ولاءات سعودية لا تخفى، بتوصيف هذا الحراك الأمني بإيعاز أمريكي لإنجاح مشروعها التسلطي في دول الربيع العربي، ولأنها أمام اللايقين تستخدم الوسيط السلفي لإفشال صعود الحس الوطني في هذه الدول، فالربط الأنطولوجي بين المجهود الأمريكي والسعودي سيقدم خدمة جليلة لقضم جغرافيات كانت تابعة للولايات المتحدة الأمريكية.

فاللايقين الأمريكي مناسبة تأريخية لن تتكرر، تساعد الخط الإيماني المقاوم إلى التمكن من الجغرافيات المعنية بالتهلهل الأمريكي، فكما أن الطبيعة تخشى الفراغ، فإن الاستراتيجيا تخشى اللايقين، ومن تسرب إليه اللايقين يدفع ثمن انسحابه ولو جزئيا من معاقله لمن يملك ذاك اليقين.

الكائن المقاوم الذي نبحثه متقوم من تفصيلة " الأنا المقاومة " القائمة إلى جانب " الأنا المتعايشة " ليس بوصفهما منعزلتان عن بعضهما البعض بل بوصفهما قائمتان في نفس " الأنا " الكليانية، والتي سماها الفيلسوف مارتن بوبر ب " أنا – أنت " و " أنا – هذا " بوصف الأولى تهم سقف العلاقة الإنسانية والثانية سقف الإنجاز الحضاري (13)، إلا أننا أقمنا الأنا المقاومة مقام الأنا – هذا لأن هذه الأخيرة لا تهتم لنوعية الإبداع بقدر ما تظل محايدة أمام كل المطبوعات العقلية، ونحن رائيين إلى مضامين الإنجاز لا إلى صورته.

فهي تحمل كمالات التعامل مع الواقع الخارجي بذهنية طهرانية لا تعرف ذرائعية على مستوى التفكير وإن تحركت بها على مستوى الواقع، لأن الذرائعية المبنائية إذا ما خالطت العقل الإيماني تحمل إليه التوجس والتشكك في اتخاذ القرارات، وتجعل مكون " الشكية " يتصرف فيه بالممازجة والمخالطة، ومن هنا يتجلى لنا خطر الاستكانة للأنا الكلية المنفعلة

---

[13] - Martin Buber : I and Thou, tranaslated by Ronald Gregor Smith,

واقعا بالخارج، بخلاف الأنا الممانعة التي تشتغل كطابور خامس لدى الروح ضمن عملية التجوهر الإنساني.

فخاصية التوثب تجعل المراجعة قائمة دائما وأبدا لمدماكية الروح لا للوجود الخارجي، وخصوصا أن الشكية الواقعية حاضرة بالأصالة فيها، بخلاف الأنا الكلية حتى لو كانت إيمانية تراجع الواقع دائما وأبدا وتنفعل بحراكه وتمظهراته.

فكلام أمير المؤمنين عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل: تزول الجبال ولا تزل، عض على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تد في الأرض قدمك، ارم ببصرك أقصى القوم، وغض بصرك، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه. " (14) رائي إلى هذه الحقيقة التي نوهنا إليها سابقا وهي أنه عندما تشتغل الأنا الممانعة تقوم بالضرورة إلى مغالبة الواقع الخارجي دون انتباه إلى خصيصة ذرائعية مبنائية، فالكلام يهتم إلى إخضاع الواقع الخارجي بأقسى ثبوته إلى ثبات الأنا المقاومة لتصير متغيرا وجوديا، وهي لعمري رؤية وجودية تقهر كل المدارس الفلسفية الوجودية السابقة واللاحقة، لتبني واقعا جديدا متوافقا مع الأنا المقاومة بوصفها همزة وصل بين التجوهر الإنساني والإرادة الإلهية.

كما أنه أعطى درسا استراتيجيا عالي الدقة والجودة، وهي أن حرب المواقع لا تبنى على منطق " الانتظار " و" المقاتلة في البين " بل على منطق " رمي بالبصر أقصى القوم " أي بالنظر إلى آخر رجل محارب يقبع مع زملائه والسعي لاستهدافه بشكل تشخيصي، مما سيؤدي إلى تحويل العراقيل القتالية الأمامية إلى مجرد عائق وقتي لا هدف أساسي يلهي صاحبه، فتضحي الطاقة الحربية أعلى مستوى، لأن وجود نية دك الخط الخلفي يؤدي

---

[14] - نهج البلاغة جمعه ونسق أبوابه العلامة الشريف الرضي مع شرح وضبط للإمام محمد عبده طبعة مؤسسة المعارف بيروت، سنة 1995 أربعة أجزاء في مجلد واحد، الصفحة 115.

بالضرورة إلى دك الخطوط الأمامية بسهولة إذ هي متواليات أهداف وأسقف رؤى، بخلاف من يستنزل من طاقته ليحصرها في محاربة الصفوف الأمامية وبمجرد رؤيته للإمداد العسكري الميداني تجد عيناه تتقلب في محاجرها من الخوف، كما أن المعنى قد يكون أبعد هو أن الرمي بالبصر أقصى القوم يكون بهدف غائي، يعني أن المعركة ما هي إلا تشكل سياسي وتعبير وجودي بشكل مختلف وأكثر عنفا، فيكون المعنى الأقرب هو رمي بالبصر إلى أقصى مطمح القوم، واعتماده قاعدة في الحراك الاستراتيجي من أجل استهدافه في العمق.

وأحببنا أن نأتي بهذا الدرس كمعامل رؤية وجودية إلى أن " أرض المعركة " – استراتيجيا أتحدث – تشمل مجمل جغرافيا " الشرق الأوسط الكبير " كما حددتها الإدارة الأمريكية في عهد بوش والتي لا زالت مستمرة مع إدارة باراك أوباما لكن بلغونة أخف وطأة.

ليستتبع هذا اليقين الإيماني حكما قيام " الأنا – هذا " بوصفه إنجازا ذاتيا في الواقع الخارجي، والتي تستغني عن اعتراف الآخر بالأنا، ف " الإنجاز مباشر يختصر مسار الاعتراف ويشتمل في ذاته على مكافأته الخاصة، ولقد نستخلص منه الإحساس بأننا نحن بالذات، وبأننا نعيش في الحقيقة، التي نميل أحيانا إلى تسميتها صدقية " (15) فسؤال الإنجاز الذاتي تحت غطاء إيماني هي أرفع من سؤال " الاعتراف " لأن الغيرية المستدخلة في أصل عملية الاعتراف، قد تمنع من تحقق الإنجاز وفق المنطق الذاتي المرغوب فيه.

فرؤية الغير لمحور المقاومة في مسار الاعتراف قد يكون تحريفيا، لأن الآخر قد تحركه هواجس مختلفة عن " خط المقاومة " فيكون اعترافه غير متيسر إلا بتنازل المحور عن خطه لفائدة هذه الهواجس، وعليه فإن المرآة الوجودية للممانعة هي بالضرورة بيضاء

---

[15] - تزفيتان تودوروف: الحياة المشتركة تر، منذر عياشي، عن المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى سنة 2009، ص: 212.

غير متوقفة على " الاعتماد المتبادل " بين يدي المختلفات الوجودية التي لا زالت تحمل حسا بريتوريا أو حتى حسا ارتكاصيا للورائيات أو ميتافيزيقا المغالبة الهووية.

فأهمية التركيز على (الأنا – الذات) من جهة أنها تضحي بناءا تحصينيا لمحور الممانعة، لكن دون أن يتم تجاهل " الأنا – الأنت " بوصفه مجال للتعايش الإنساني (16) هو مجهود تواصلي دون تخلي عن محورية دائرة الإنجاز الذاتي، وبالتالي يظل هذا المعطى من المسلكيات الوجودية السيرية لليقين الإيماني كما نوهنا إليه أعلاه، ذلك أن التواصل يتقوم على المنجز الواقعي لا على الخلفية الخلقية والبحث عن الحد الأدنى في التوافق.

وطبعا بكل هذا الاقتدار التكويني في الكائن المقاوم تكون لفكرة الممانعة فرصة تأريخية عليه أن يبادر إلى استغلالها في جغرافيات المتحولات الكبرى خارج الأجندة الأمريكية بخلق مشتل ممانع في المشهد السياسي والاستراتيجي حتما، لأن اهتزاز تصور سياسي واضح يسمح بتداخل مفاهيم ممانعة ودخولها على الخط، على الأقل بوصفها مقترحا عموميا ببناء الذات وبناء الثقة في نفس الآن.

لذلك في العمق نرى بأن معركة بينا في منطقة الشرق الأوسط وقعت على مرحلتين، المرحلة الأولى هي معكوسة حيث إن الحلف المقدس الليبرالي سارع إلى حرب " الفكرة الممانعة " في مهدها بتوسط ذراع عسكرية متقدمة تجلت في نظام صدام حسين الذي تلقى دعما ماليا ولوجيستيا عالي جدا، وبعد الهزيمة التي تلقاها صارت المرحلة إلى التدخل العسكري المباشر في المنطقة، حيث لم يكن نظام صدام حسين إلا بروكسي كبير لهذا الحلف (17)، وبعد فشله صار لزاما أن تتدخل الآلة العسكرية الأمريكية مباشرة لتدارك

---

[16] -تزفيتان تودوروف: ن.م الصفحة 213.

[17] - حاول نظام صدام حسين إيجاد الكثير من المسوغات لهجومه على إيران الثورة فبدأ بادعاء استرجاع جزء من شط العرب، لكنه سريعا ما أفصح عن غايته الأساس عندما تحدث عن حماية البوابة الشرقية والوقوف في وجه تصدير الثورة الإسلامية، مما جعله حاملا لغايات عولمية في حينه.

الهزائم وتراكم الدور الإقليمي الذي بدأت تلملمه الجمهورية الإسلامية في إيران، إلا أنها اكتشفت بأن فشل أدواتها الوظيفية كان أكبر مما تم تصوره.

ففي المرحلة الأولى كانت الحرب العراقية الإيرانية معركة بينا معكوسة، إذ أن حلف الأوليغارشية السياسية العولمية هي من بادرت إلى حرب على دولة الثورة، ليتم تدارك الحينونة الاستراتيجية كما لو أن البروسيين قرأوا معالم الأثر السياسي والفكري لحملة بونبارت فسابقوه إلى حرب مهلكة للفكرة، إلا أن الدرس التأريخي المستفاد لم ينجح. أما بعد التدخل العسكري الأمريكي مباشرة لإسقاط نظام صدام حسين، فإنها صارت معركة بينا بتمامها وكمالها، لأن الحرب الأمريكية جاءت على أساس بنية فكرية جديدة تولدت بعد الحرب الباردة بما هي مطمح حضاري انقلابي يتلاءم مع التوجهات العولمية الجديدة.

ومن هنا وأمام تحقق الردع الثوري صار الوجودان الحضاريان يقفان على أرضية مواجهة رأسية خارج منطق الوسائطيات القتالية، لنضحي أمام مرحلة تولد جديدة لصراع الإيديولوجيات الكبرى. (18)

فثمة بدء تأريخي يتجلى بدأ سنة 1979 إلا أن صرخته تأخرت إلى غاية 1989 حيث شكلت هذه المرحلة مرحلة حينونة وجودية، وعندما تم الإشهاد على أن الردع الإسلامي تحقق في أجلى صوره صرنا أمام مرحلة كينونة بكل تفاصيلها الشرطية، حيث بدأ البناء على هذا الردع من أجل عالم أكثر عدلا.

إلا أن الفشل الأمريكي عسكريا وثقافيا في كل من العراق وأفغانستان، عمق من تروما الفشل في العقل الاستراتيجي الأمريكي، ودفع بأدواتها الوظيفية في المنطقة إلى أخذ

---

[18] -ليس من باب المصادفة أن عادت إلى الواجهة دراسات تبحث آلية حرب الأفكار وكيف يمكن للولايات المتحدة الأمريكية الانتصار في هذه الحرب الجديدة، الانتصار الأساسي الذي حققته بانهيار الكتلة الشرقية جعل العين على موت الإيديولوجيا لكن بعد الصدامات التأسيسية لخط عالمي جديد جعلها تكتشف بأنها صارت امام شيء إسمه حرب الأفكار ويمكنها أن تخسر فيه.

المبادرة لتدارك عمق التكاليف الجيوسياسية بكثير من الانخرامات التصورية الراجعة إلى ما قبل معاهدات ويستفاليا. مما أدى حكما إلى تقديم دفق استراتيجي جديد للجمهورية الإسلامية، لأن العالم المتعولم لا يمكنه القبول بالرجوع إلى هذه المرحلة التأريخية بوصفها تهديدا بنيويا لكل ما يشتغل عليه، وسيؤدي حتما إلى دفع الموجودات السياسية في المنطقة إلى " مفترق طرق " بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية.

المبحث الثاني: معالم بداية تأريخ وولادة روح عالم جديد:

بدأ المشهد العالمي يعيش تزاحما في الرؤى حول " مفهوم العالم " بعضها تضايفي وبعضها تناقضي، وكلها تحولت إلى ماكينات ضخمة تتحكم في سير المعتقدات على الأرض، مما أدى إلى فقدان التوازن التصوري لحركته، وأضحينا أمام سباق محموم نحو الريادة، إنها حقا صراع الإرادات التي أعادت الدينامية في قلب الجمود الجغرافي السياسي، مانحة الكلمة للجيوبولوتيك كطاقة حركة جديدة تجاوزت اختناقات الجغرافيا.

لذلك استعاد التأريخ مكانته الأساس كمرآة رؤيوية ليس للحاضر وحسب، بل للمستقبل أيضا، بوصفه فاعل حقيقي كثيرا ما يترنح خلف أحلام اليقظة التي تسكن القوى المنتشية بانتصاراتها الظاهرية، فالقلم الاستراتيجي الأمريكي أعلن ولادة عالم جديد على خلفية انهيار ماكينة إيديولوجية كبرى وهي الماركسية دون أن ينتبه إلى أن الموجودات الماركسية القائمة على الأرض سوف تمارس مخاتلة في السطح، لتحافظ على مسوغات وجودها في العمق، فالصين الشعبية استوردت آليات الفعالية الليبرالية في الشق الاقتصادي دون أن تسمح بولوجه " غرفة عمليات " صناعة القرار الأساسي، كما لو أنها تمارس تقية عملانية منتظرة الفرصة لكي تقضم من رأس آلهة الليبرالية في العالم، وعلى نفس حافة العالم كانت الجمهورية الإسلامية تمارس مخاتلة من نوع آخر ذلك أنها اشتغلت على بناء ذاتها وبناء رؤيتها للعالم سواء في خرائطيات المعرفة أوخرائطيات المنطقة، سامحة في نفس الآن لجسر

من التواصل الدنوي يمهد لها لقاءات عابرة للقارات تساعدها على الوصول إلى نفس البغية، لنكون أمام سباق محموم للبت في نقطة نهاية / بداية التأريخ.

مركزة على صعود ما أضحى يسمى ب " زمن المهانين " حيث السياسات الخارجية لكثير من الدول التي تذوقت طعم الإهانة نحت إلى سياسة خارجية معارضة، تريد إثبات سيادة وطنية فوق كل اعتبار آخر، غفلا عن المنطق السليم للأمور سماها المفكر بادي ب فئة " السياديين " . ([19])

واقعا من يعيد النظر في الكتابات المهتمة بالسياسات الدولية تنظيرا وعلى الخصوص بالولايات المتحدة الأمريكية، سوف يعاين بأن الجميع مهجوس بنهاية التأريخ، الفارق وحسب أن هناك من استبق الأمر وأعلن عن ذلك في محفل السكارى بانهيار الاتحاد السوفياتي، وهناك من توقف للحظة يتعقب آخر الانهيارات الممكنة للقول بتحقق نهاية التأريخ، فالفارق واقعا ليس في أصل الفكرة (20) بقدر ما هو منصب على تحققه من عدمه الآن وهنا، ولذلك من يقفون على حقيقة عدم تحققه يميلون إلى القول بأننا نعيش لحظة " الغسق " التأريخي كما خلص إلى ذلك المفكر والتر رسل ميد.

في حين أن التجاذبات القائمة والتي يراها البعض مقدمات غسق لا بد منها، نراها نحن بدءا تأريخيا جديدا، ليس من جهة الصراعات القائمة وخطاب الاستعادة الذي يتكرر في أكثر من مكان كعودة الحلم العثماني أو الصراع من أجل الإمبراطورية السوفياتية أو الإمبراطورية الروسية وغيرها من التصريحات التي تتناسل في مقالات المحللين والمعلقين، بل لأننا نقف على صدام رؤى للعالم، وكلما تصعدت الصراعات إلى سقف الرؤى نكون أمام

---

[19] - لمزيد من التوسع مراجعة كتاب برتران بادي زمن المهانين باتولوجيا العلاقات الدولية.
Bertrand Badie : Le Temps Des Humiliés – pathologie des relations internationales, edition Odile Jacob, 2014.

[20] - مجمل الكتابات الأمريكية ترى الديموقراطية الليبرالية تمام الكفاءة الإنسانية ونهاية لتأريخ الصراعات التصورية وحرب الأفكار، بل حتى هناك من اشتغل على اللوفيتان الليبرالي لينتهي مع الإرث الهوبزي ولو بتلفيق كانطي، كما فعل جون إيكنبري.

حالة تأريخية تولدية، تهتك المتسالم عليه وتعيد بناء عالم جديد، والفارق هذه المرة هو أن الصدام ليس بين تصورين ماديين كبيرين، بل بين تصورين الأول متعالي بشروطه وإمكاناته والثاني مادي بثقله الصراعي، لا يقبل في أن يفسح مكانا لخصم جديد يتربع على عرش تحمل تكاليف مالية ضخمة لتحقيقه ولو بسلب لخيرات الآخرين.

<u>رجوع الجيوبولوتيك عود على بدء:</u>

الكثير اعتقد بأنه بعد انهيار الاتحاد السوفياتي تراجع الزخم الجيوبولتيكي إلى الخلف، تاركا المجال مفتوحا أمام اتساع في الفكر الليبرالي الذي يدك الاختلافات الإثنية والدينية ويتوافق تحت تيمة واحدة وهي " برادايم السوق " بوصفه الإطار المعرفي الأكثر تماسكا لتجاوز هكذا مضائق وجودية.

وبالفعل عمدت المؤسسات الدولية والممثلة للمنتظم الدولي على إعادة قراءتها للعالم على ضوء هذا المقترب، مطالبة بتحرير الأسواق وتليين الثقافات المحلية لتتماهى مع الحدث العالمي الجديد.

ليتم استرجاع الكثير من الأطروحات الفلسفية التي تفتقت عن العقل الجرماني، لأنها من جهة أرادت قراءة حركة التأريخ حكميا، أو لأنها رأت التسيد والعبودية دينامية عقلانية داخلية لا تفقد من وهجها الحقوقي إلا لتزداد توهجا في السقف الفلسفي السياسي.

واقعا يصعب استخراج الفارق بين " الجغرافيا السياسية " و " الجيوبوليتك "، لأن المسألة لا تعدو أن تكون ثمرة تصورات فقهاء وباحثين أعلام في هكذا مجال، إلا أنه ولأسباب أكاديميا سليمة تم فرز معنائي لهذين العلمين، فالدكتور عدنان السيد حسين يرى بأن الجيوبولتيك هي فرع عن الجغرافيا السياسية، لأن الثانية هي مطارحة موضوعية لأثر الجغرافيا على الأوضاع السياسية الدولية، في حين أن الأولى تنطلق من معطيات العلم الثاني، لكنها تطمح لما يجب أن تكون عليه الدول، بمعنى أن الجيوبوليتيك هو مدى معرفي

استراتيجي يقوم على الجغرافيا السياسية لكن برؤية تغييرية تهدف إلى تحقيق مطامح سياسية للدول. (21)

وكما يقول والتر راسل ميد فإنه بعد صدور كتاب " نهاية التأريخ والرجل الأخير " للمفكر فرنسيس فوكوياما، هناك من بنى على أصل النظرية للقول ب " نهاية الجيوبوليتيك " (22) ما دامت الرؤية النهائية هي وحدوية تقوم كما الإيديولوجيا العالمية منهية الصدامات العالمية، وفي نفس الآن قاهرة للمطامح الإقليمية، ذلك أن " السيطرة على المنظومة – العالم تعني بالتعريف أنه لا يوجد سوى قوة وحيدة في وضع جيوبوليتيكي (الجيوسياسية) يسمح لها بفرض شبكة ثابتة من التقسيم الاجتماعي للسلطة " (23)

إلا أن الواقع أشد تعقيدا ويؤكد على نشوء ما أسماه ميد مع كثير من الوقاحة ب " محور السوس " axis of weevils القائم على روسيا الإتحادية والصين الشعبية والجمهورية الإسلامية في إيران، والذي يجري مراجعات بنيوية للخلاصات السياسية التي نتجت عن انهيار الكتلة الشرقية، وبأن هذه القوى وفي ظل تلاحم بنيوي تعمد إلى تعقيد الرؤية إلى العالم، إذ أن الجيوبوليتيك الماقبل نهاية الحرب الباردة عاد وبقوة سواء في ملف أوكرانيا أو بمناسبة حالة الفشل الذريع الذي تكبدته الولايات المتحدة الأمريكية في العراق أو الهيمنة الصينية التي تتعاظم يوما عن يوم، مما جعله يبادر إلى القول بأننا نعيش حالة " غسق تأريخي، لا نهاية التأريخ ولا بمرحلة ما بعد التأريخ كما حاول البعض أن يروجها لتدارك الهنات التصورية الفوكويامية، لأن الصراعات القائمة فعلا هي صراعات متولدة من أنساق

---

[21] - لمزيد من التوسع مراجعة كتاب الدكتور عدنان السيد حسين الجغرافيا السياسية والاقتصادية والسكانية للعالم المعاصر صادر عن دار مجد (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع) لبنان الطبعة الثانية سنة 1996 ابتداءا من الصفحة 61 وما يليها.

[22] - Walter Russell Mead : the return of geopolitics , the revenge of the revisionist powers, foreign affairs, volume 93 number 3, may/june 2014, p70 .

[23] - عمانوئيل فاليرشتيان: استمرارية التاريخ، تر: عبد الحميد الأتاسي، الناشر دار كنعان، الطبعة الثانية سنة 2003 الصفحة 55.

فكرية سياسية مختلفة تماما، وليست ضمن لافتة الفكرة الديموقراطية الليبرالية حتى نتحدث سواء عن نهاية التأريخ أو مرحلة ما بعد التأريخ، فالأمر عند ميد أقرب إلى جيوب إيديولوجية مقاومة لا تخلو من قوة أو فعالية تعمل كالسوس على نخر القوة والرؤية الأمريكية على حد سواء، ليصير الحديث عن " غسق " التأريخ أولى في الاعتبار مع هكذا واقع.

لكن ما أغفله الدكتور ميد هو أن مجمل البحث الفوكويامي المنوه إليه، كان طرحا جيوبوليتيكيا بامتياز (24) مع فارق أساس هو أنه طرح جيوبوليتيكي عولمي، لا يعير كبير انتباه إلى الخصوصيات الثقافية وتزاحم الهويات الجهوية، فكان خليطا من الاستشراف الهلوسي لأنه أقرب إلى الإيديولوجية بالمعنى الماركسي، أي الأطر المعرفية المغلقة والمانعة من القبض على الحقيقة، وهو ما حاول تداركه بأسلوب نقدي معبر صامويل هنتغتون في كتاب " صراع الحضارات "، واستلاب المؤثرات الحضارية الأخرى من الفاعلية كما لو أنها وفقدت دورها نهائيا بالاستتباع، وصار لزاما عليها أن تركب المكوك الأمريكي من جهة أن المغلوب مجبول على تقليد الغالب.

فالمسألة ليست بأكثر من صدام رؤى جيوبوليتيكية وحسب، الطرح الليبرالي رأى بأنه بعد تفكك الاتحاد السوفياتي ودخول مجموعة من الجمهوريات السابقة إلى حلف الشمال الأطلسي صارت مشروعيته أقوى ك " رؤية جديدة لروح العالم "، في حين أن المكونات الحضارية التأريخية والتي تجر معها عنفوانا متجاوزا للألفية اعتبرت بأنها تعيش مرحلة تأريخية هامة جدا تسمح لها برفع الرأس عاليا، معلنة أنها هنا في العالم، متحولة إلى كينونة في العالم على قاعدة المغالبة والاستحقاق لنيل الاعتراف.

---

[24] - Frédérick Douzet, David H. Kaplan: « Geopolitics : la géopolitique dans le monde angloaméricain », Hérodote 2012/3 (n° 146-147), p. 237-252. “Francis Fukuyama (The End of History and the Last Man, 1992), Samuel Huntington (The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order, 1996) ou John Mearsheimer (The Tragedy of Great Powers, 2001) élaborèrent chacun un discours géopolitique offrant un nouveau cadre pour comprendre le monde d’après guerre froide.” p 241.

فعودة الجيوبوليتيك إلى حلبة الصراع العالمي فرمل إلى حد كبير الامتداد العولمي بما هو إيديولوجية أعلنت نهاية عصر الإيديولوجيات، وجعلت التأريخ المحلي يعود بقوة أكبر وبمطامح جهوية أفقدت المشروع الدولي صوابه.

ليتحقق اختراق أساسي على مستوى منظومة – العالم كبنية ليبرالية رأسمالية تؤكد على مراجعات حضارية ليست ذات صبغة إيديولوجية بالضرورة، فكل الاختراقات التي أضحت ناجزة تعتمد الخصوصية الحضارية للاعبين الإقليميين في سباق نيل الاعتراف، الذي أرادت له الولايات المتحدة الأمريكية أن ينسد على شرطي " الليبرالية السياسية " و " حرية السوق "، باحثة عن موطئ قدم عولمي مضاد، فإيمانويل فاليرشتاين خلص إلى أن " خيار الخميني أساسا هو حصيلة تراكم السخط أو فورة الغضب من ويلات منظومة – العالم الحديثة والموجهة بعنف ضد المستفيدين والمحركين الرئيسيين لهذه المنظومة، بلدان المركز الغربي في الاقتصاد – العالم رأسمالي. وهذا يعني أن المقصود هنا إدانة الغرب بما في ذلك وربما حتى قيم الأنوار على الخصوص. " (25).

<u>الملا صدرا مجالسا هيغل:</u>

يرى الفيلسوف هيغل بأن للتأريخ غاية تحكمه وهي وقوع تطابق بين روحية معقلنة على أشراط دنيوية ورفع الواقع الخارجي إلى أساس أخلاقي يقهر البربرية والهمجية أو " دينونة الدنيا "، ليتحول المسار الإنساني إلى مستوى تطابقي مع الحق الخالد الأبدي (العقل الكوني)، هذه هي خلاصة تصوره لنهاية التأريخ، والتي رآها تتحقق مع الثورة الفرنسية عندما أنهت بما هي حمولة معرفية سياسية جنون عصر الإمبراطوريات والإمارات التي اعتمرت القارة الأوروبية، ودفعتها نحو المدنية والتقدم في خطاب الحق والعدالة. (26)

---

[25] - عمانوئيل فاليرشتيان: ن.م، الصفحتان 49 و 50.

[26] - هذا لم يمنع هيغل كما فيشته من أن يوجه انتقادات قاسية جدا لنابليون بونابارت عندما وصفه بأنه خان مبادئ الثورة الفرنسية، وتحرك بأخلاقيات إمبراطورية وإن بزي حقوقي ثوري.

ولهذا يشكل هذا الحدث التأريخي منعطفا أساسيا في البناء الفلسفي الهيغلي، لأنه دائما ما كان ينظر إلى التأريخ على أنه حركة تكاملية لنافذية العقل الكلي في الوجود الإنساني.

لذلك لم يكن ينظر إلى الدولة إلا كشيء عقلاني في ذاته ولذاته بوصفها تجسد فعلي للروح الموضوعية، ففكرة الدولة عند هيغل هي أنها نهاية الفلسفة السياسية بوصفها امتداد روحي في التأريخ، لذلك الدولة لا يمكن أن تكون إلا الواقع الفعلي للحرية الملموسة.

فنهاية التأريخ عند هيغل هي ظهور الدولة بوصفها مكون عقلاني في ذاته ولذاته، حاملة لروح التأريخ بما هي حمولة حقوقية وسياسية في نفس الآن حاكية عن عبقرية الشعب وروحه، فتتراكم حقوق الحاكم والمحكوم إلى واجبات كليهما ضمن رؤية متعالية عن المبنى الأدواتي الذي عبر عنه هوبس أو روسو أو لوك ضمن العقد الاجتماعي والإرادة العامة، والتي لا يراها هيغل إلا تلاعبا معرفيا لا يتوافق مع معنى الدولة بل تضحي تصورات مؤدية إلى تجويف معنائي. (27)

لذلك لم يكن مستغربا أن يصير روح العالم عند هيغل هو ظهور الدولة بما هي فكرة متجلية لتوافق الديني والدنيوي على حد سواء بتعقلن للأول وتخلق للأخير، على أساس أن الظواهر الطبيعية والاجتماعية بالمجمل تقوم على أساس " المطلق " أي التصاق الروح بالعقل، المؤدية إلى الفكرة المطلقة أو عقل العالم أو روح العالم، فمن جهة ترابطية العقل الكلي بالروح نكون أمام أرواحية جديدة هي عين الوجود في أتم صوره، ما دامت الفكرة تتطور في نفسيتها الذاتية بإدراك معتبر لتقع على الواقع الخارجي فترتد إلى نفسها بمرآتية خارجية.

---

[27] - لمزيد من التوسع يرجع إلى كتاب مبادئ فلسفة الحق لهيغل خصوصا القسم الثالث من الجزء الثالث المعنون بالدولة.
Hegel : Principes De La Philosophie Du Droit, tr, Jean – Louis Vieillard-Baron, GF Flammarion, pp 298 – 305.

ومن هنا نعتقد بأن ظهور فكرة ولاية الفقيه المطلقة تشكل منعطفا تأريخيا قالبة للمعنائية الهيغلية، متوافقة إلى حد كبير مع الإرث الصدرائي وخصوصا فيما يتعلق برؤيته لوحدة الوجود، ما دمنا نستقرئ روح العالم أي ملاكات ممكن الوجود بالمعنى المعياري للكلمة.

فالفيلسوف الملا صدرا وفي مقام بحثه لوحدة الوجود التشكيكية دون أن نستفيض في مباحث " الحكمة المتعالية "، نجده يقول بخصوص تفصيلة مبدأ التشكيك في الوجود ما يلي " حقيقة الوجود ذات مراتب مختلفة كما لو قيل بأن الوجود علة في مرتبة ومعلول في مرتبة أخرى، ومجرد في مرتبة ومادي في مرتبة أخرى، بالفعل في مرتبة وبالقوة في مرتبة أخرى. ويقال للتفاوت في هذه المراتب بالتفاوت الطولي، ومعنى هذا الكلام هو أن الاختلاف في المراتب هو بالشكل الذي يمكن تبريره عن طريق الشدة والضعف أو المحيط والمحاط " (28) مع لحاظ بأن المرتبة الوجودية للمعلول هي عين هوية المعلول.

ذلك أن كل موجود من موجودات العالم من حيث كونه معلولا، ذو جهتين: جهة يشبه فيها فاعله ويحكي عنه، وجهة يختلف فيها عن فاعله ويباينه؛ لأنه عقلا لو توافق المعلول مع علته من جميع الجهات سقط معنى الصدور ولم يعد له مسوغا، وإن اختلف عنه من جميع الجهات وقع تناقض بين العلة والمعلول والحال أنه يستحيل جمع النقيضين في العلية.

لهذا وفي مقام البحث في أصل فكرة " الوحدة في عين الكثرة " نجد بأن صدر المتألهين حاول أن يحل إشكالية الكثرة في الوجود حينما اعتبر التكثر هو نوع من الاعتبار المنطبق على الماهية؛ باعتبار أن الموجودات الخارجية تخضع لعملية الإيجاد بوصفها معلولة لعلل أعلى شأنا وأشرف مرتبة، وبوصف الوجود الخارجي مفتقر لعلته وإن حافظ على تشخصاته المائزة له عن أصل علته، فهو " لا يقول بوحدة الوجود من حيث هي نفي لحقيقة

---

[28]- غلام حسين ابراهيمي ديناني: القواعد الفلسفية العامة في الفلسفة الاسلامية، دار الهادي، الطبعة الأولى سنة 2007،الجزءالثاني ص 76.

الموجود، ما دام هو يؤكد هذه الماهيات المتشخصة بوجوداتها ، ولا يرجع الوحدة إلى واجب الوجود الأول من حيث لا وجود إلا وجوده، والباقي اعتبارات وهميه كما ذهب ابن عربي ... إن ملا صدرا يقر بالوجود الواجب ووجود الممكن،على السواء. وكونه كذلك، فهو يقر بالكثرة فى الموجود الممكن ". (29)

إن الكثرة في الوجود تقوم على أساسين : الأول من حيث مرتبيتها من شدة وضعف وعلو ودنو والثانية من جهة تشخصها باستدخال الماهية، وقد أشار العلامة عبد الله جوادي آملي في شرحه لكتاب غرر الفرائد إلى ذلك مؤكدا على أثر الكثرة في الوحدة قائلا " في الوجود كالنور الحسي، كثرتان: إحداهما من حيث الكمال والنقص الجامع بين أنحاء الست من الاختلاف التشكيكي، وهو كثرة ذاتية، وتسمى بالكثرة النورية، وهذه هي الكثرة التي كلما كانت أوفر، كانت في الوحدة أوغر ... وإذا بلغت هذه الكثرة إلى منتهاها ترجع إلى الوحدة، وثانيتها الكثرة التي تحصل لها بالقياس إلى مهية مهية، وهي كثرة ظلمانية أي ناشئة من القوابل، منافية للوحدة، لكنها عرضية، ولمكان عرضيتها لا تنثلم بها الوحدة الذاتية التي هي الوحدة الحقة الحقيقية. " (30)، إلا أن صدر المتألهين الشيرازي ولإقراره باعتبارية الماهية فقد أبقى على خلاصاتها في الجنبتين معا ليجعل من وحدة الوجود شخصية مع الإقرار بالتكثر الحقيقي، في قالب الوحدة مع الكثرة " ومن جملة المضاهاة الواقعة بين الوحدة والوجود إفادة الواحد بتكراره العدد...مثال لظهور الموجودات الإمكانية بالماهيات وهي بعضها حسية وبعضها عقلية، كما أن بعض المعدود في الحس وبعضها في العقل. ومن اللطائف أن العدد مع غاية تباينه عن الوحدة، وكون كل مرتبة منه حقيقة برأسها موصوفة بخواص لا يوجد في غيرها إذا فتشت حاله لا يوجد فيه، ولا في حقائق مراتبه المختلفة غير

---

[29] إدريس هاني: محنة التراث الآخر، دار الغدير، سنة 1998، ص 298.

[30] - الحاج ملا هادي سبزواري: ن.م ، ص 253.

الوحدة " (31) ، فالوحدة في عين الكثرة تقر بالتكثر الحقيقي في ممكن الوجود لوقوع الماهية في طول الفقر الوجودي، وهو ما يفيد ضمنيا تجاوز وهمية الوجود خارج واجب الوجود كما يذهب إلى ذلك العارف ابن عربي، ف " علاقة الواحد بالعدد هي ذاتها علاقة الوحدة بالكثرة على الصعيد الوجودي كما يراها الفلاسفة وعلى رأسهم صدر المتألهين. فالكثرة في الوحدة تتحدد بخصوص اندكاك كل الكمالات المختلفة في وحدة الذات الإلهية وانجماعها بها؛ طبقاً لقاعدة (بسيط الحقيقة كل الأشياء). أما الوحدة في الكثرة فتتحدد بسريان الوجود الواحد في هياكل الأشياء الكثيرة، فهي بهذا تفيد فعل المبدأ الحق، كما أن الكثرة في الوحدة تفيد ذات الحق لا فعله، وذلك من حيث جمعه لكمالات الكل. من هنا تُعد الكثرة في الوحدة بهذا المعنى متقدمة على الوحدة في الكثرة؛ تقدم الذات على فعلها، والحقيقة على سريان نورها" .(32)

فالوجود عند الملا صدرا كمفهوم له معنى واحد، وعندما نطلق على الموجودات الخارجية والمتعددة بأنها موجودة فلا محمل لها إلا على معنى الثبوت والتحقق، لذا فإن الوحدة في المنظومة الفكرية المتعالية ليست وحدة حقيقية شخصية بين أكمل الوجود وهو الباري جل وعلا مع باقي الوجودات الممكنة، بل إنها متقومة من جهة الوحدة التشكيكية، حيث هناك اختلاف ماهوي في طول المراتب الوجودية الممكنة بين الشدة والضعف، وبالتالي إن اتفق بين الحق والخلق وجود فهو من جهة الاشتراك المعنوي، إذ أن " العقل يجد بين موجود وموجود من المناسبة والمشابهة ما لا يجد مثلها بين موجود ومعدوم " (33) وهو ما يتفق على تسميته بوحدة الوجود الشخصية أو الوحدة الحقيقية غير الحقة مع

---

[31]- الملا صدرا: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الخامسة 1999 ، الجزء الثاني ص 87 .88.

[32]- يحيى محمد: الفلسفة والعرفان والإشكاليات الدينية، ص 242 و 243.

[33]- الملا صدرا: ن.م، الجزء الأول، ص 35.

الوجودات الممكنة، لا وحدة الوجود الحقيقية الحقة كما هي متبناة عند العارف محي الدين بن عربي.

وإن كان المفكر يحيى محمد يجد أن ثمة تذبذب في موقف الملا صدرا في وحدة الوجود ؛ فمرة ينحو منحى ابن رشد للقول بوحدة الوجود النوعية ومرة ينحو منحى ابن عربي للقول بوحدة الوجود الشخصية مرتكزا على استشهادات متكثرة لتوطيد كل رأي " وواقع الأمر أن في تصريحاته الكثيرة هناك ترددا واضحا وكبيرا بين القول بوحدة الوجود العضوية، والقول بوحدة الوجود النوعية كما لدى ابن رشد وطريقة الإشراق الفلسفية. " (34)، لكن الضابطة هي في التأسيس المحوري لنظرية الوجود، لأنه لا يغفل أحد بأن الملا صدرا حاول تصويب رأي ابن عربي فيما يتعلق في قوله بوحدة الوجود العضوية (حقانية الوجود ووهمية الوجود الخارجي) وهذا السعي من قبل الفيلسوف صدر المتألهين ما هو إلا دليل على أنه يخالفه الرأي " إذ مع ما شهدنا من أن هذا الفيلسوف أراد أن يدفع التهمة عن الشيخ الأعرابي في القول بوحدة الوجود العضوية للموجود الواحد المتنزل، إلا أنه هو الآخر مع بعض تلامذته لم يسلم من هذا الاتهام " (35)، فالتصويب مخالفة دون كثير استدلال.

ذلك أن الوحدة الحقيقية غير الحقة تتأسس على وسائط من قبيل النوع والجنس والعرض والعدد والنقطة والعقل، في حين أن الوحدة الحقيقية الحقة تتحرر من الوسائط ف " المصداق الحقيقي لأي مفهوم في العالم هو ما لا يحتاج في اتصافه بذلك المفهوم إلى أية حيثية تقييدية أو تعليلية " (36) وحيث أثبت الملا صدرا – وإن في مقام السنخية والمشابهة – تكثرا للموجودات ضمن عنوان الوحدة في عين الكثرة يكون قد جعل من الوسائط حاكما في البين، رادا متلازمة الوهم والخيال المتشبعة في نظرية العارف الكبير ابن عربي.

---

[34]-يحيى محمد: مدخل إلى فهم الإسلام، ص197.

[35]-يحي محمد: ن.م، ص 196 – 197.

[36]ــ غلام حسين ابراهيمي الديناني: القواعد الفلسفية العامة في الفلسفة الاسلامية،الجزءالثاني ، ص 99 – 100.

فالبناء الولائي – المقصود ولاية الفقيه المطلقة – بما هو طرح جيوسياسي يعرف انبساطا جغرافيا، تأصل بالأساس على قاعدة محورية وهي استمرار الولاية في مرحلة الغيبة الكبرى، بما هي فعل حضاري مستمر وفعال في نفس الآن، حاولت القطع مع الأشراط الخارجية للكون والارتكاز على العمق اللاهوتي بما هو دفع روحي.

هنا نجد السيد الخميني (قده) قد تسلح بمجموعة من الأحاديث الشريفة، كما تسلح بالكلام للاستدلال على استمرار الولاية مع الفقيه وفق نفس الإطلاق الثابت تكوينيا للأئمة الأطهار عليهم السلام، مع اختلاف جوهري إذ أن هذا الأمر مجعول للفقهاء اعتباريا لانتفاء العصمة عنهم، مما يجعل من الضابط الشعبي ضمانة مهمة جدا لعدم انحراف الفقيه عن الخط الإمامي المتبع.

فولاية الفقيه كمؤسسة سياسية إن كانت قد عرفت مع علماء وفقهاء سابقين أفاضل فإنها لم تتجسم كتفصيلات إلا مع الإمام الخميني، ونحن لضيق الحيز لن نستفيض في مناقشة ولاية الفقيه ومشروعيتها لأن هناك كتابات كثيرة قد كفتنا هذه المسألة، ولكننا سنركز البحث حول فكرة الإستمرارية وأثرها على فكرة الدستور .

إن القول باستمرارية الحجة والشاهد لمن الأقوال المحورية في المذهب إذ ما كان للخالق أن يترك أمر عباده دون أن يصطفي لهم خيرة خلقه لينير لهم الطريق بدأت أولا مع رسله وأنبيائه لتستمر مع الأئمة الأطهار، وتظل في العلماء بشروط جوهرية تنتفي عنهم بانعدام الأشراط.

والقول باستمرار الحجة لمن الأقوال المسنودة قرآنا وحديثا حيث نجد الباري سبحانه وتعالى يقول " وجعلنا لكل أمة هاد "الآية والحديث الشريف القائل :" العلماء ورثة الأنبياء " ومقبولة حنظلة وكذا الحديث المروي عن أبي عبد الله عليه السلام الذي قال: " ما زالت الأرض إلا ولله فيها الحجة، يعرف الحلال والحرام ويدعو الناس إلى سبيل الله) " هذا

الحديث بسنده مذكور في كتاب أصول الكافي باب أن الأرض لا تخلو من حجة)، وغيرها كثير من الأدلة وحيث أن العلماء ورثة الأنبياء مما يجعل أن الحجية والشاهدية قائمة لهم بالجعل لا التكوين باجتماع الأشراط كلها وإلا انتفى وصف العالمية عن المدعي لها.

والإمام رضي الله عنه قد فصل القول في هذه النقطة مما يجعل من مسألة التخوف من الإكليروسية التمامية منتفية أساسا، ولا تجعل ثمة شبهة عقلية تتسرب بهذا الخصوص.

جاعلا من استمرار الولاية في طول الفقه منبنية على طاقة علية بين الإمامة والفقاهة الجامعة للشرائط، كما لو أنها تكثر تفصيلي عن مقام الإمامة مشابه في الوظيفة دون المستوى التشخصني الجالب للعصمة، ليقع ربط سيري بين أصل الفكرة العليا وهو ظهور القائم عجل الله فرجه الشريف والسلوك الحضاري الدال عليه بالفعل لا بالقوة وحسب.

فالبناء الولائي يقوم على مباني عقلانية ذات أصالة واقعية، لأنها تتحرك من الجنبة السلبية في الإنتظار إلى الجنبة الإيجابية فيه، بوصفها سعي شمولي إلى التوطئة والتمهيد، ناظرة إلى المعضلات الخارجية ومحاولة استقراءها قراءة كلامية/ لاهوتية، تبنين التأريخ الإسلامي في أقانيم معرفية تساعد على تتميم التصور الشمولي.

بخطاب آخر أنها تتحرك بهاجس واقعي ضمن أسس معرفية مأخوذة من المعيار الإسلامي ومن المعارف التأريخية لتقلبها تأريخانية، أي تتجاوز اللحظة الزمانية والمكانية للأحداث لتجعلها مبتنيات فكرية معلقة في السماء، لا دخالة لها مع مسببات الحدث، وهو ما أسميناه بمعامل الأقنمة فتتحرك وفق هذه المباني على ضوء الإسلام المحمدي الأصيل، لتفعل في الواقع بشكل أنطولوجي لا تكتيكي فعلها الحضاري مساهمة منها في تسريع دورة التأريخ الرائية إلى الكمال.

ومن هنا نتحدث عن إدراك ذاتي يتحرك جيوسياسيا ليهندس الخارج الطبيعي، فيرتد كل ذلك بما هو متغيرات خارجية إلى الأصل الإدراكي بما هو فكرة روح تقلب موازين القراءة وفق التصور الهيغلي أو غيره من التصورات.

والأوكد أنه لهذا السبب بالذات يصل المفكرون في السياسات الدولية إلى حقيقة أن الثورة الإسلامية في إيران، شكلت انخراما في قلب التصور الغربي لروح العالم أو العقل الكوني، تجعله وأمام كبريائه المجروح يتحدث عن " غسق التأريخ " بدل نهايته، لكن الجميع يعلم بأنه عندما يتولد روح عالم جديد مناقض للبناء القائم، ما دمنا أننا لسنا أمام تضايفات وجودانية، فإننا نكون في قلب حرب في العظمى مؤذنة بزوال السابق. فليس ثمة إمكانية لتولد روح عالم جديد في قلب تصور عالمي غالب إلا إذا كان حاكيا عن ضعفه البنيوي، وإشرافه على الانهيار.

ومن هنا تكون التروما العراقية التي تلقتها الولايات المتحدة الأمريكية بعد التروما الفيتنامية، حاكية على حجم الصدمة الناتجة عن توغل خط عولمي جديد لا يتوافق مع المطمح الأمريكي، وهذا لا يمكن إخفاؤه ولو بمراجعات والتر راسل ميد على أصل البناء الفكري لفوكوياما.

فاللحظة الشفقية للتأريخ لا يمكن أن تفهم إلا من قلب مديات الصراعات التي يشهدها العالم، فلكل ولادة مخاض.

الفصل الثاني: جدلية التعالي / التداني ما وراء ثيمة " البقاء ":

في هذا الفصل سوف نشتغل على قراءة حالة الحكومة الإسلامية في الجمهورية الإسلامية في إيران بوصفها نوعا جديدا على خلفية صراع المناهج التغالبية ورؤيتها للعالم (المبحث الأول) قبل بسط وجهة نظرنا حول آلية قراءتها للوجود الدولتي المختلف تماما عن ثيمة البقاء وسوء الإدراك المعتمل حول خطها العملاني.

المبحث الأول: الجمهورية الإسلامية وخلفية صراع المناهج التغالبية:

نظرا لفشل جمهورية فيمار والتي تولدت على أساس ديموقراطي بعد انهيار الامبراطورية الألمانية بعد الحرب العالمية الأولى والتي مهدت لنجاح الطرح النازي، تناسلت الأبحاث والدراسات الحقوقية بين تياري الوضعانية القانونية والقانون الطبيعي، واشتد الصراع إلى مقام الدخول في تفاصيل " مفهوم الدولة " و " البرلمان " و " الديموقراطية " و " السيادة الوطنية " وغيرها من مفاصل تدبير السياسات العمومية، وتصدى لهذا الصراع النظري فطاحلة الفكر القانوني الألماني الذين يجمعهم ليس فقط الجنسية الألمانية وحسب، بل الاقتدار الفكري للدفاع عن التصورات اللائي يتبنونها.

اشتهرت بمرحلة " صراع المناهج " methodenstreit querelle de méthodes وإن كان الإسم الأكمل لهذا الصراع هو Methoden- oder Richtungsstreit der Staatsrechtslehre (صراع المناهج أو صراع المعنى في نظرية القانون العام).

حيث أنه خلال مرحلة انهيار جمهورية فيمار، رأى مجموعة من الفقهاء القانونيين الفرصة المؤاتية لتسديد ضربة إلى الطرح الوضعاني الذي كان متزعما المشهد القانوني، فاشتغلوا على معنى الدولة وأدوارها بكيفية تنهي الهيمنة الوضعانية، حيث انضم للفريق الطبيعي كل من كارل شميت، وهيرمان هيلر، ورودولف سميند، وكوفمان، الذين تصدوا لهدم

رؤية هانس كيلسن النمساوي والذي قدم كتابا حول نظرية الدولة متأصل بالكامل على البعد القانوني الوضعي، مما اعتبر استفزازا بالنسبة لتيار القانون الطبيعي.

طبعا وجد كيلسن الكثير من الفقهاء الألمان الذين دافعوا عن تصوره من بينهم غيرهارد أنشوتز وريشارد توما، وبهذا تكون اكتملت دورة التيارين.

التيار الطبيعي كان يهتم بترسيم أصول السيادة الوطنية ومنحها إطلاقية كاملة في تدبير الأزمات السياسية الداخلية والخارجية وتكميم معارف إنسانية من علم الإجتماع والعلوم السياسية لوضع لبنات " جهاز الدولة "، بخلاف التيار الوضعاني الذي حاول أن ينكب على السقف القانوني وحده وإعطاء معالم تأسيسية، قد لا تتناسب مع الواقع الإنساني بالضرورة، وتهميش مجمل المؤثرات المعرفية التي تقع خارج القانون. (37)

المهم أن أول صراع مناهج حدث كان في أواخر القرن التاسع عشر داخل الخط الفكري الاقتصادي والذي جمع بين كل من كارل مينغر النمساوي و غوستاف شمولر، حيث سعى الأول إلى التخلص من كل الخلفيات الفكرية الغير الاقتصادية لوضع نظرية صافية بهذا الخصوص، في حين أن الثاني لا يبحث الفكر الاقتصادي إلا باستدخال المعارف الاجتماعية والتأريخية في طول الاقتصاد، وقد عمد مينغر إلى خلق ما سوف يسمى فيما بعد بالمدرسة النمساوية التي تتالت مع تلامذته من ميسز إلى أن وصل الدور إلى فريدريك هايك الفيلسوف القانوني والاقتصادي المعروف والذي قدم الكثير للطرح النيوليبرالي.

---

[37] ــ لذلك لم يكن مستغربا أن نجد الفقيه هانس كيلسن يضع كتابا تحت عنوان " النظرية الصافية للقانون " بمعنى أنه تخلص من كل المعارف الإنسانية الغير القانونية ليضع نظريته، على العموم فكرة النظرية الصافية قد أخذها بالكامل عن الإقتصادي النمساوي كارل مينغر الذي وضع النظرية الصافية للاقتصاد، وهذا الأخير في مواجهة غوستاف شمولر، واقعا هما من خلقا صراع المناهج في الاقتصاد في أواخر القرن التاسع عشر لتتسرب إلى العلوم القانونية والسياسية. لمزيد من التوسع بخصوص هذا الصراع الثنائي مراجعة مقالة ماثيو شاربونو.

Mathieu Charbonneau : Le Methodenstreit : plus qu'une « querelle de méthodes », Serie Notes de Synthéses, fev 2009, Vol 1, N 4, Centre D'études Sur L'intégration Et La Mondialisation.

ما دام هو أحد المؤسسين الفعليين لهذا التوجه الفكري الذي يعتبر السوق هو الضابطة الأقوى لسير المجتمع، وبأن تدخل الدولة لن تؤدي إلا إلى نتائج كارثية، ولذلك يكون من المناسب إعطاء السوق كامل الحرية وكامل الصلاحية لتدبير أزماته الداخلية لأنه الأقدر على ذلك، وتطورت التصورات القانونية بهذا الخصوص، لأنه عقلا لا يمكن إمداد مثل هكذا فكر إلا بالدخول إلى الحرم القانوني والفلسفي السياسي، فتناسلت التصورات النيوليبرالية مع كل من ميلتون فريدمان الذي أوضح بأن حرية السوق تشكل أقوى لبنة لدمقرطة المجتمع، ومنح الحريات، وبأنه عن طريق خنق السوق تتوقف الحريات الاجتماعية، فتعقب تصوراته كل من القاضي ريشارد بوسنر وغاري بيكر (تلميذ فريدمان) اللذين أسسا التيار القانوني الجديد والذي يعرف تصاعدا مضطردا ضمن " تيار القانون والاقتصاد " وقيام الخط الليبرتالي على أعمدة فلسفية قوية بالنتاج الفكري لروبرت نوزيك الذي أصل للمبنى القانوني الفلسفي الجديد المسمى " الدولة ذات الحد الأدنى " The minimal state حيث لم يعد للدولة أي دور غير تعقب الجانحين وإيجاد أجواء مناسبة لتصرف السوق في المجتمع، والامتناع عن باقي أدوارها وتركها للسوق بوصفه الضابطة الأعلى. (38)

فالدولة التي يدافع عنها الفيلسوف نوزيك لا يراها ترتفع عن سقف حماية الأمن وحماية العقود، مع ترك الدائرة الأوسع للسوق بوصف اليد الخفية هي التي تحافظ على التوازن، بعد أن أعاد مناقشة مفهوم العدالة التوزيعية التي تنبني على المقدرات الإنسانية

---

[38] - Robert Nozick : Anarchie, état et utopie, tr Evelyne d'Auzac de Lamartine, Quadrige PUF ? p 45. « L'état veilleur de nuit de la théorie classique libérale, limité aux fonctions de protection de tous ses citoyens contre la violence, le vol et la fraude, au respect des contrats passés, etc, semble etre redistributif. Nous pouvons imaginer au moins un arrangement social intermediaire entre le schema des associations protectrices privées et l'etat veilleur de nuit. Puisque l'etat veilleur de nuit est souvent appelé etat minimal. »

وحركة العمل دون خلفية الرعاية. (39) وهذا المد الفكري تسرب بسرعة إلى المباني الفكرية في العلاقات الدولية حيث أضحت " السيادة الوطنية " على المحك، لأنها صارت أكبر عائق يمكن أن تعيشه القوى الكبرى في تمرير قراراتها وتطبيقها على الأرض.

وقد تمدد هذا التصور مباشرة بعد انهيار جدار برلين وسقوط الإتحاد السوفياتي مما فتح فترة فيمارية ثانية، تريد القطع مع المدرسة الوضعانية الأرثدوكسية والاشتغال على منظومة فكرية قانونية طبيعية تتزيى الزي الوضعاني في تفاصيل دقيقة والكل في خدمة المبنى الطبيعي كما طرح في ألمانيا سابقا.

أو ما أسماه المفكر فرانسيس فوكوياما بأنه نهاية التأريخ، أي بانتشار الفكر الديموقراطي الليبرالي في العالم بشكل أوسع، لسنا بصدد تدقيق مبانيه الفكرية، بقدر ما نود الإبانة عنه هو أن تصورا سياسيا بدأ يشق طريقه ليغير معالم العالم على أسس فلسفية جديدة، من أجل قانون شمولي يحكم العالم أجمع طبعا وفق الترتيبات الأمريكية.

ولكي يتسنى تمرير هذه المباني القانونية كان ضروريا إعادة التفكير في مفهوم السيادة الوطنية، وبحث دائرة وجودها من عدمها، بشكل جعل الكثير من فقهاء القانون والخبراء يعيدون النظر فيها كما لو أنها ليست من المباني الأساسية للدول.

ومن هنا فإن الحكومة الإسلامية شكلت جرحا غائرا إضافيا في العقل العالمي لأنها تقطع مع خصوصية المديات الطبيعية أو الوضعانية، لتتأسس على قاعدة متعالية تهيمن على كلا التصورين، روحية سياسية لا تقع ضحية استدلالات دنيوية وتدافعات منطق المغالبة المادية، بقدر ما ارتكنت إلى منطق المغالبة الغيبية والتي لا تؤثر فيها لا التوجهات

---

39 - أمام تعقد كتاب الفيلسوف روبرت نوزيك أنصح القارئ الكريم بأن يراجع كتاب جونثان وولف المسمى " روبرت نوزيك . الملكية، والعدالة والدولة ذات الحد الأدنى " لأنه أعاد بسط تصور الفيلسوف بطريقة مبسطة ومكدسة تعفي القارئ من تعقب آراء الفيلسوف المعقدة والمشذرة في مجمل الكتاب، ذلك أنه يطرح الفكرة ثم يمر لأخرى وبعد ذلك يعود لنفس الفكرة ليستكمل النقاش بخصوصها مما يؤدي إلى صعوبة في التعامل لحصر آرائه.
Jonathan Wolff : Robert Nozick – Property, justice and the minimal state,politty press, 1991.

البراغماتية ولا التوجهات النفعية، وفي نفس الوقت تجاوزت مضائق الطرح السياسي التيوقراطي الذي يحصن رأس الهرم السلطوي بادعاءات ميتافيزيقية، بل تنزلت إلى الشرعية الشعبية وفق قواعد دينية متعالية تستقرئ التحديات العملية، مما منح هويتها الإسلامية دينامية مبنائية لا تفسح للنقود الغربية بالنفاذ إلى عمق هيكلها السياسي، جعلها تتخلص من متلازمة الصدمة الحداثية كما أرادها المفكر إدريس هاني عندما أكد على ضرورة " تحرير العقل العربي والإسلامي من آثار جروحه الغائرة ونفض غبار الهزيمة والاحتياط وخيبات الأمل التي تجعله عقلا مرشحا لتبني كل أشكال الإختزال الفكري والتنظيري " (40) فأزمة العقل العربي الإسلامي ذات جنبتين: سيكولوجية متجلية في الإنجراحات والتعبيرات التعويضية والهذيانية، مؤسسة على أساس صدمة الحداثة والهزائم السياسية والعسكرية والتنموية ، وجنبة معرفية متشكلة في المأزق البراديغمي الذي يعيشه العقل والمتأثر حتما بالجنبة السابقة مما يدفعه إلى الهامشية والانفعالية الوجودية ذات التعاقلية السلبية خالصا إلى مقتضى محوري هو أن " ليس له (أي العقل العربي الإسلامي) منها اليوم إلا الاستعارة (يعني من عقل الحداثة)، بل وأسوأ أشكالها، استعارة خردتها المستعملة. يحدث هذا في السلع والخدمات والقيم والأفكار والتصورات. فالعقل العربي والإسلامي المعاصر إذن، هو في نهاية المطاف ليس له من هذه الحداثة، سوى سقط المتاع" (41).

ومن هنا أضحت تنظر إلى أشياء العالم من جهة ثنائية تعالي / تداني الموجودات الدولتية، وأضحى أصل الموضوع عندها لا تدبير " البقاء " بما يحمله هذا الأخير من رزمة الصراع والتنافس الماديين المحض، بل من جهة ميزة تعالي الموجودات الدولتية في مقابل تداني الأخرى، وتدبير الصراع على هذا المستوى دون ارتكاز إلى هوية دينية أو إيديولوجية

---

40 - إدريس هاني: الإسلام والحداثة – إحراجات العصر وضرورات تجديد الخطاب، منشورات دار الهادي ضمن سلسلة فلسفة الدين والكلام الجديد. الطبعة الأولى سنة 2005 الصفحة 62.

41 – إدريس هاني: ن.م الصفحة 63.

معينة بل المقصد القيمي هو الغالب، ليس بمعنى أن القيم أيقونات ثابتة يتحنث الأمر أمامها، بل بوصفها جدلية عملانية حتى لا تضحي كما يقول بول فاليري " حيوانات محنطة موضوعة على الرف " المقصد القيمي الذي تريده الجمهورية الإسلامية هو صراع التعالي والتداني في الموجود العالمي.

المبحث الثاني: الاستقراء ودائرة الإدراك البنيوي:

الاستقراء هو دراسة الجزئيات لإثبات الحكم الكلي، وهو ينقسم إلى قسمين استقراء تام واستقراء ناقص، والاستقراء التام هو بحث جميع الجزئيات بأسرها وصبها في قالب واحد وهو ليس من أوجه الاستدلال والاستنباط، واستقراء ناقص وهو يعد من أقسام الاستدلال إلا أنه لا يدرس جميع الجزئيات.

صحيح أن الاستقراء الناقص لا يفيد العلم بالمعنى الجزمي، إلا أنه يظل مفيدا للعلم جالب للاطمئنان مع تحقق وجود احتمال خطأ النظرية، لكن هذا الاحتمال لا ينتبه إليه، بما هو استدلال بالخاص على العام، يرتكز على الحس والعقل معا في ذلك، لأن الحس يهم الجزئيات القليلة التي تم دراستها، أما العقل فيهم جنبة إصدار الحكم الكلي بشكل انتزاعي، وهنا المعضلة الأساس لأن " الانتزاع " هو تكوين القناعة على هامش كبير من الخطأ لنقص المعطيات الاستقرائية الحسية.

يصرح الأستاذ يحيى محمد " بأن الإدراك العقلي له منظاران، أحدهما قبلي، أي بغض النظر عما عليه الموضوع الخارجي سواء كان نصا أو واقعا، والآخر بعدي يتأسس بما يتزود به من مادة الموضوع المدرك، الأمر الذي تتداخل فيه الدلالتان العقلية والموضوعية، فيصبح بذلك مستنتجا ومضيفا. ففي العملية الاستنتاجية يقوم باستنساخ مفردات الموضوع ليؤلف منها ما يتسق والصورة المنطقية حسب مبادئ قبلية يرتكز عليها من غير أن يبدي إضافة إخبارية قبلية كاشفة عن الموضوع الخارجي، إلا على نحو

الإضافة الحسابية التي تؤكدها الدراسات المنطقية وذلك بتحويل درجة الاحتمال المتناهية القوة إلى اليقين طبقا للعملية الاستقرائية، حيث يتم فيها تصفية الحسابات الخاصة للقضية المدركة ضمن ضوابط منطقية، مثل إدراكاتنا التصديقية للقضايا الحسية وما يترتب عليها من نتائج خاصة، وكذا إدراكنا للنصوص الواضحة الصريحة التي لا تحتاج إلى تأمل وحمولة عقلية، ولو على نحو الإجمال. فليس للحساب الاحتمالي أن يصل بذاته إلى اليقين ما لم يتم ذلك بحسب الإضافة العقلية الخاصة. لكن تظل هذه الإضافة التصديقية غاية في الضآلة قياسا مع ما يقابلها من قوة احتمالية، لهذا فهي غير محسوبة ومحسوسة إلا عند النظر المنطقي." (42) أوردنا النص على طوله لأنه يشرح بشكل جلي دور المدرك العقلي في التعامل مع الموضوع الخارجي، ويعمل على إيضاح ذلك الميكانيزم الداخلي الدقيق الذي يقوم به العقل بوصفه الدليل الكبروي إذ أن " المعطى الموضوعي صغرويا في الدليل لا يستغني عن تحكم مبادئ عقلية شاملة وثابتة هي التي تهيمن على عملية الاستدلال والإنتاج المعرفي " (43).

فالعقل بما هو موجود متكامل يعرف استقلالية إن مطلقة وإن مقيدة بالموضوع الخارجي، وطبعا هذا التقيد هو موطن تكامله لأنه يتشخص مع المواضيع الخارجية يستنطقها وبحساب الاحتمالات يوقنها..

وهنا رأس الإشكال وهو أن النهج العقلي قد يؤدي إلى تحقيق اليقين الذاتي أو حتى اليقين الموضوعي الذي يهم درجة التصديق التي تتحقق في النفس، لكن الجانب التطابقي مع الواقع فهو مستحيل الحكم عليه هل يتطابق أو لا يتطابق.

---

[42] - يحيى محمد: فهم الدين والواقع، منشورات دار الهادي، سنة 2005، الصفحتان 158 و 159.

[43] - يحيى محمد: ن.م الصفحة 159.

والواقع أن أهم من اهتم بهذه الجنبة هو العلامة محمد باقر الصدر قدس الله نفسه الزكية، في بحثه عن طرقية جديدة لتكوين يقين المؤمن بعقائده. والحال أن منهج الشهيد السعيد يهم اليقين الذاتي واليقين الموضوعي المؤدي إلى التصديق المتحقق على مستوى النفس وليس اليقين الموضوعي بجنبته التطابقية مع الواقع في المسألة، ذلك أنه وبعد تفتت اليقين الأرسطي وفقده مصداقية لوجوده، طفق العلامة الصدر على تأسيس منهجية جديدة تبنى على الاستقراء وتكوين القناعة الشبه الجزمية على الأقل على المستوى العقلي، ففي هذا الإتجاه يأتي مشروع الشهيد السعيد محمد باقر الصدر لكي يذب عن حريم الدين من خلال حساب الاحتمالات، مع خلوصه إلى استحالة تحقق اليقين المطلق.

فمنهج الدليل الاستقرائي القائم على حساب الاحتمالات يمكن تلخيصه في الخطوات الخمس التالية:

" أولا: نواجه في مجال الحس والتجربة ظواهر عديدة.

ثانيا: ننتقل بعد ملاحظتها وتجميعها إلى مرحلة تفسيرها، بإيجاد فرضية صالحة لتفسير هذه الظواهر وتبريرها جميعا.

ثالثا: نلاحظ أن هذه الفرضية إذا لم تكن صحيحة وثابتة في الواقع ففرصة وجود تلك الظواهر كلها مجتمعة ضئيلة جدا. بمعنى أنه على افتراض عدم صحة الفرضية تكون نسبة احتمال وجودها جميعا إلى احتمال عدمها أو عدم واحد منها على الأقل ضئيلة جدا.

رابعا: نستخلص من ذلك أن الفرضية صادقة ويكون دليلنا على صدقها وجود تلك الظواهر التي أحسسنا بوجودها في الخطوة الأولى.

خامسا: إن درجة إثبات تلك الظواهر للفرضية المطروحة في الخطوة الثانية تتناسب عكسيا مع نسبة احتمال وجود تلك الظواهر جميعا إلى احتمال عدمها أو عدم واحد منها على الأقل على افتراض كذب الفرضية. فكلما كانت هذه النسبة أقل كانت درجة الإثبات

أكبر حتى تبلغ في حالات اعتيادية كثيرة درجة اليقين الكامل بصحة الفرضية وفقا للمرحلة الثانية من الدليل الاستقرائي ". (44)

فأساس اليقين المعتبر وفق هذه النظرية ذاتي صرف انبناءا على مذهب ارتضى له العلامة الصدر اسم (المذهب الذاتي) ف " في رأي المذهب الذاتي معارف أولية تشكل الجزء العقلي القبلي من المعرفة، وهو الأساس للمعرفة البشرية على العموم.

وهناك معارف ثانوية مستنتجة من معارفنا السابقة بطريقة التوالد الموضوعي.

وهناك معارف ثانوية مستنتجة من معارفنا السابقة بطريقة التوالد الذاتي" (45). والتوالد الموضوعي المتحدث عنه يعني أنه متى ما وجد تلازم بين قضية أو مجموعة من القضايا وقضية أخرى، فبالإمكان أن تنشأ معرفتنا بتلك القضية من معرفتنا بالقضايا التي تستلزمها، أما التوالد الذاتي فيعني أنه بالإمكان أن تنشأ معرفة ويولد علم على أساس معرفة أخرى، دون أي تلازم بين موضوعي المعرفتين، وإنما يقوم التوالد على أساس التلازم بين نفس المعرفتين.

صحيح أن النظرية تتقوم على أساس دراسة الظواهر والخلوص إلى نتيجة فرضية تثبت صحتها، لكنها في العام لا تكون مطابقة للواقع بقدر ما هي استقراء له بشكل انتزاعي، وهو أمر كان منطقيا ونهاية طبيعية لأنها ارتكزت على مواضيع ميتافيزيقية، لكنه يمكن أن تسير قدما إلى اليقين الموضوعي الخارجي في مجال البحوث السياسية الدولية، هذا ما سوف نسعى لبحثه في العنوان الثاني.

---

[44] - السيد كمال الحيدري: المذهب الذاتي في نظرية المعرفة، منشورات دار الهادي الطبعة الأولى، 2004 الصفحة 381 و 382. ويمكن مراجعة كتاب العلامة محمد باقر الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء مؤسسة دار الكتاب الإسلامي عن المجمع العلمي للشهيد الصدر سنة 1410 هجري من الصفحة 403 إلى 413.

[45] - الشهيد محمد باقر الصدر: ن.م الصفحة 126.

فالجمهورية الإسلامية في إيران بعد الثورة سنة 1979 ومن يتماهى مع تصورها الجيوسياسي والدولي، بنت لنفسها مبصارا استقرائيا مختلفا عن المألوف المناطقي، لأنها رجعت إلى منطق استقراء السلوكات الدولية كمكون ثانوي، وحاولت الإمساك بالملاك الماهوي للنظام الدولي ولدينامية القوى الكبرى بالشكل الأساس، مما حذا بها إلى تشكيل بنية تصديقية تساعدها في الحفاظ على بوصلة " الرؤية " دون ارتهان إلى التصريحات الرسمية والدبلوماسية العالمية، بمعنى أن الاستقراء هم " الماهيات " لا التشكلات السياسية للقوى الكبرى، ومن هنا نفهم معنى الأقنمة السياسية للكيان الصهيوني، كدولة شيطان أصغر لازمة الزوال، والولايات المتحدة الأمريكية كشيطان أكبر يجب التوجس من كلماته وسلوكاته الإغوائية.

فالإمام الخميني قدس سره الشريف في مسألة تشخيص حالة الولايات المتحدة الأمريكية رجع إلى تأصيلها على أنها كائن بهيمي " إن كيان أمريكا كلّه يدور حول محور هذه الأمور الحيوانية "الاصطياد"; فهذه البلدان لابدّ وأن تبتلعها أمريكا، وكل مَنْ يتفوّق في هذا المضمار يحوز قصب السبق من مجلس الشيوخ الأمريكي، بينما كل مَنْ يحول دون ذلك فهو مجرم في نظر هذا المجلس، وهذا هو أقصى ما يفهمونه. " (1979/4/22) (46) وهو نفس ما كرره الإمام القائد السيد علي خامنئي حفظه الله ورعاه " انظروا كم هو البعد الشاسع بين الخليج الفارسي وأراضي الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنهم لم يجدوا مصالح لهم إلا هنا وفي هذه المنطقة مع كل هذا البعد! وهم لا يعبأون بما إذا كان العقلاء والمنصفون ورجال القانون في العالم يوافقون على ذلك أم لا، لأنهم لا يستندون إلا إلى قوتهم الحيوانية. (1988/4/20) " (47)، كما عاد وصرح " إنّ القضية ذات الأهمية البالغة هي السيطرة المتزايدة للشيطان الأكبر على ثروات العالم الإسلامي والتواجد السياسي

---

[46] - أمريكا في فكر الإمام الخميني، دار الولاية للثقافة والإعلام، الطبعة الثانية 1424، الصفحة 15.

[47] - أمريكا في فكر الإمام خامنئي، دار الولاية للثقافة والإعلام، الطبعة الثانية سنة 1424 هجري، الصفحة 20.

والاقتصادي وحتى العسكري المطّرد في بلدانه؛ فبعد التطورات العالمية الأخيرة التي أسفرت عن سقوط الأنظمة الشيوعية الملحدة وأبعدت الاتحاد السوفيتي عن موقع المنافسة مع أمريكا، عكفت القوة الأمريكية العظمى والمستبدة على جعل كافة بلدان العالم . ولاسيّما الدول الإسلامية الغنية . تنضوي تحت سيطرتها في غياب المنافس، حتى تتفرغ لشن حربها الشاملة على النهضة الإسلامية . التي تمثل عائقاً كبيراً أمام نفوذها . وذلك بعد الانتهاء مما يسمى بالحرب الباردة. (1991/6/16) " (48)، وفي الواقع هناك شواهد كثيرة على نفس الخطاب، مما يؤكد على أن محور المقاومة من جهة رأسيته الإيديولوجية يعتمد مبصارا ماهويا، وعلى أساسه يفسر السلوكات الدولية للقوى الكبرى وخصوصا تصرفات الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أنه من ناحية الامتداد الجغرافي يمارس استقراءا سلوكيا محضا من جهة مقبولية الكائنات الدولتية الطبيعية في الجغرافيا.

مما جعل تصديقاته الفكرية تقع في عرض المدرسة الواقعية بمختلف ألوانها، ويمارس ركوبا مجانيا للمتحول الليبرالي الذي عرفته نظرية العلاقات الدولية الحديثة، تتقاطع في العمق مع المدرسة البنائية والتي ترى الاعتبار للمتغيرات الفكرية في الحكم على العلاقات الدولية.

وهي فرصة أساسية لبناء سياسة خارجية مرتكزة على " الطاقة الاستراتيجية " للدول في العالم، بعيدا عن جنبة " القوة " قريبا من جنبة " المكنز الاستراتيجي "، هذا المكنز الذي لا يقوم على العنصر الجيوسياسي بالضرورة، لكن على أساس الثقل التأريخي أيضا، بوصفها دولا تتحوز أسهما كثيرة في عملية بناء التأريخ الإنساني، وتستطيع العودة ولو بعد حين.

---

[48] - أمريكا في فكر الإمام خامنئي، ن.م الصفحة 16.

السياسة الخارجية في زمن " الإهانة " العالمية:

العولمة كما تم طرحها هي رؤية ليبرالية للعالم تتقوم على ثلاث مرتكزات أساس، الإقحام أو الاشتمال والاعتماد المتبادل والحركية، وهي مرتكزات تساعد في بناء حوكمة عالمية قائمة على ثيمة " السوق الحر "، فالإقحام أو الاشتمال هي " القدرة الجديدة لنظام دولي بات يغطي البشرية كلها بتمامها وكمالها بحيث تجتمع رسميا تحت الراية ذاتها وتخضع للقواعد ذاتها. " ([49]) أما الاعتماد المتبادل بخصوص حكم الآخرين وولاية أمرهم هو " في أقصاه منحى في زيادة المكاسب، وهو في أقله وأدناه، طريقة في تلافي غل الآخرين وضغينتهم. وفي عالم يرتهن فيه كل لكل، أي الضعيف للقوي، وكذلك القوي – بعد الآن – للضعيف، فإن حكم الآخرين بات يفترض الاضطلاع بهشاشات الآخر وفشله واحباطاته " ([50]) أما الحركية فهي عودة الهجرة إلى واجهة الأحداث بوصفها حتم لصيرورة الحكامة العالمية.

وهو ما أضحى يصطلح عليه ب " اللحظة العالمية " عند الباحث زكي لعايدي والذي حاول تقديم دراسة استدلالية على أننا بثنا نعيش ثمة لحظة موحدة تقوم على أساس ديموقراطية السوق " إن اللحظة العالمية ليست مجرد إضفاء طابع الشرعية على إيديولوجية السوق، وعلى ناتجها السياسي، أي الديموقراطية. وإنما هي تأكيد على الارتباط العضوي بينهما إلى درجة قيام علاقة دائرية بين السوق والتنمية والديموقراطية. " ([51]) وقد عرفها ب " اللحظة التي تتشابك فيها الآثار الجيوسياسية والثقافية لمرحلة ما بعد الحرب الباردة مع

---

[49] - برتران بادي: من يحكم العالم الصفحة 18 دراسة صدرت ضمن سلسلة أوضاع العالم سنة 2017 تحت عنوان " من يحكم العالم ؟ " إشراف برتران بادي ودومينيك فيدال ترجمة نصير مروة صدر عن مؤسسة الفكر العربي ضمن سلسلة حضارة واحدة.

[50] -برتران بادي: نفس المرجع الصفحة 19.

[51] - زكي العايدي: المعنى والقوة في النظام العالمي (دراسة) ضمن العمل الجماعي تحت إشرافه " المعنى والقوة في النظام العالمي الجديد "، ترجمة سوزان خليل، عن دار سينا للنشر سنة 1994، الصفحة 41.

تسارع وتيرة العولمة الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، فاللحظة العالمية ليست هي مرحلة ما بعد الحرب الباردة لأن أوروبا على الخصوص من عاشت آثارها الجيوسياسية، ولا مرحلة العولمة لأنها بدأت منذ زمن ليس بالقصير، بل هي تقاطع لهاتين السيرورتين الكبريين " ([52]) تحاول أن تحتوي الأحداث العالمية ضمن معاني قوية، مستقرة ومنسجمة. ([53]) بمعنى أنها تتحول إلى جهاز معرفي كبير خالق للمعنى الأساسي العالمي، بتوسط أفكار – قيم تستطيع أن تنظم سير العالم، والتي تتحرك لزوما مع تيمة " ديموقراطية السوق " حيث أضحت ميكانيزمات السوق الحر متحكمة في السير الاقتصادي العالمي شمالا وجنوبا، فضلا عن تحطم المباني الإيديولوجية التي يمكن أن تقف أمام هذا التمدد.

وأن اللحظة العالمية لا يمكن أن تقوم إلا باستجماع ثلاثة شروط أساسية، وهي الحدث وعدم الرجعية والانسجام.

ففيما يتعلق بالحدث بما هو مقطع زمني يفصل بين " الما قبل " و " الما بعد " يجب أن يكون حاملا لقيمة لا لتصنيف تأريخي محض، لأن الما بعد لا يكون ذي أهمية إن لم يكن مشمولا بقيمة جديدة تتضاف إليه بعد دخول الحدث على خط البتر الزمني ([54]).

وواقعا " الحدث " عرف حراكا وتداخلا وتهميشا وفق التحولات الفكرية التأريخية التي عرفها الغرب، فمن مقام المحورية في المدرسة المنهجية الإسطوغرافية، إلى الدور المتقلص مع مدرسة الحوليات إلى مرحلة التجمد الكلي مع الجيل الثاني للمدرسة، إلى أن ظهر التوجه النقدي الذي أعاد للحدث محوريته في العملية التأريخية، لكن مع فارق أساسي أنه قطع مع مجمل التصورات السابقة إلى أن أدى به الأمر إلى الوصول إلى خلاصة أنه " لا معنى للقول بأن المؤرخ يطمح إلى استعادة الأشياء كما وقعت، إن هدفه ليس أبدا أن يجعلنا

---

[52] - Zaki Laidi : Le Temps Mondial- Enchainements, disjonctions et médiation. Les Cahiers de ceri, numéro 14, 1996, p 6.
[53] - Zaki Laidi : Op cit, p 7.
[54] - Zaki Laidi : Op cit,pp 17 et 18.

نعيش من جديد الحدث السابق، وإنما أن يعيد تركيب هذا الحدث ويعيد إنشاءه من خلال نظام رجعي فالموضوعية التأريخية تكمن بالضبط في نبذ ادعاء مطابقة الماضي الأصلي، إذ عمل المؤرخ هو بناء نسق الواقع انطلاقا من فضاء المعقولية التأريخية، ومن ثم فإن هذا العمل يهدف قبل كل شيء إلى تربية ذات المؤرخ : " إذ التأريخ يصنع المؤرخ بالقدر الذي يصنع فيه المؤرخ التأريخ " بمعنى أن " مهنة المؤرخ تصنع في آن واحد التأريخ والمؤرخ " " ([55]).

فالحدث استعاد مكانته في الهندسة المعرفية العالمية، وبدأت على أساسه تجري المراجعات الفكرية، وليس ببعيد عنا أثر حدثين على الترسيمة الاستراتيجية العالمية، حدث سقوط جدار برلين وحدث الحادي عشر من شتنبر، اللذين أديا إلى إعادة تأصيل لفكر إمبراطوري ذاتي التكون ابتداءا بعد انهيار الكتلة الشرقية، وتدخلي إكراهي بعد أحداث نيويورك وواشنطن.

إذ أنه بما هو واقعة مادية خارجية ذات أثر كبير، تؤدي إلى انقلاب في التصورات وفي السياسات، ووحدها الدولة المتمعيرة في التفكير تبقى خارج الأثر التأريخي للوجود الدولي، مما يجعلها قابلة للدهس في أية لحظة من اللحظات.

لذلك التأريخ الحدثي أعاد رزمة من المتحولات الواقعية إلى داخل الفاعلية المعرفية التأريخية، ولم يعد محكوما بسيف الإسطوغرافيا، بقدر ما جعلها تفلسفا إنسانيا جديدا يعتمدها كإواليات استدلالية على الفكرة.

وطبعا قيام الحدث بوصفه فيصل زمني عن الما قبل والما بعد حاملا لقيمة جديدة للسيرورة التأريخية، يستلزم انضمام شرط عدم الرجعية، لأنه واقعا الأحداث التي لا تقطع مع الما قبل قيميا لا تكون حدثا تأسيسيا بالمرة، وإنما متواليات زمنية تعرف تسارعا نوعيا إلى

---

[55] - السيد ولد أباه: التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو، طبعة الدار العربية للعلوم الطبعة الأولى سنة 1994، الصفحتان 39 و 40.

حين مجيء " الحدث "، ولو أنه عمليا يصعب الارتهان لهذا المعامل، لأنه رغم وقوع الحدث التأسيسي يمكن للعقل السياسي في جغرافيات معينة أن يناوره لكي يؤبد المرحلة السابقة، ويتجاوز ضرباته، فمثلا فيما يتعلق بالموجة الديموقراطية العالمية والتي تتأصل على شكليات انتخابية ومضمون فكري محدد المعالم، ووجود مؤسسات وبنى سياسية خادمة لهذا المشروع الانتقالي، نجد بأن بعض الأنظمة التي حاولت تجاوز إعضالات هذه الموجة، ركزت على شكلانية الانتخابات بما هي إجراءات سياسية، دون إقحام ثقافتها إلى قلب البنى والمؤسسات السياسية المحلية.

أما الشرط الثالث والضروري فهو الانسجام فأي حدث تأريخي لا يمكن أن يكون له دور عملي في السير التأريخي، إن لم يقدم رؤية منسجمة لكل الحراكات الكبرى، وليس بالضرورة وقوع ثمة توافق في التفاصيل.

ولذلك فإن اللحظة العالمية يمكن أن تتحول إلى براديغم جديد، ليس بمعنى أنه جهاز مساعد على اكتشاف الواقع كما هو بل أيضا من جهة " طرحه طرق جديدة للفعل والتفاعل " ([56]) بما هي رؤية منسجمة، والتي يراها الباحث لعايدي متقومة في إيديولوجية " ديموقراطية السوق " من حيث تسارع وتيرة الخوصصة في العالم أجمع، وانفتاح العقلية الاقتصادية العالمية على مداميك السوق، وتحوير كل ذلك إلى رؤية سياسية وجيوسياسية ضمن أقنوم الديموقراطية والتنمية من داخل قوانين السوق.

بمعنى أن " اللحظة العالمية " المتقومة على ديموقراطية السوق لم تعد فقط رؤية كاشفة للحراك الدولي، بل آلية فعل وتفاعل داخل المشهد العالمي، إلا أن الباحث لا يستبعد استمرار بعض اللحظات المحلية والإقليمية بوصفها لحظات مقاومة لهذه اللحظة العالمية، أو في أحسن الأحوال قارئة جديدة لها. ([57])

---

[56] - Zaki Laidi : Op cit, p 22.
[57] - Zaki Laidi : Op cit, p 30.

ومن هنا تأتي حيوية القراءة التي نقدمها من أجل استراتيجية سياسة خارجية فعالة، ليس بوصفها تأويلا جديدا للعولمة، بل بوصفها اهتبالا إقليميا يتناسخ مع إقليميات جديدة في العالم، فالوجه العكسي للعولمة هو قيام الإقليميات الغير النظامية العميقة الأثر فعليا، وفي زمن " الإهانة " العالمية.

فأحد أهم الانهيارات الأساس التي ركز عليها المفكر برتران بادي لتبيان تهاوي مبدأ الاشتمال هو أن " القوى الإقليمية التي انبثقت أو انبعثت، كانت مصدر احتجاج ومعارضة بأكثر مما كانت مصدر ضبط وإعادة توازن " ([58]) وازداد المبدأ انهيارا أمام معضلة " الإهانة " التي أضحت خبزا يوميا في السياسات الدولية، مما أدى إلى تولد دبلوماسيات النزاع diplomaties de contestation ودبلوماسيات الانحراف diplomaties de déviance.

فدبلوماسيات النزاع " كل دبلوماسية تمنح حيزا معتبرا في سلوكها نحو النزاع والاحتجاج على كل أو جزء من النظام العالمي، في أفق الحصول على امتيازات سواء على المستوى المحلي أو الدولي " ([59]) والتي عرفت تحولا أساسيا بعد نهاية الحرب الباردة وخرجت من سقف الخطابة والإشارات إلى نوع من بناء القوة في جبهة " الصغار " تجاوزت مبادئ فيينا، " لنخرج من سباق القوة ولندخل مرحلة البحث عن الاستقلال، أي لعبة غير تناظرية، وعلى المستوى الثاني أضحت تفرض نفسها في الأجندة الدولية: استباقية عن طيب خاطر، تشعل النيران، ترفع التحديات، تفرض على الأقوياء التصرف في مواضيع غير متوقعة، والمنازعة في مواقف كان يعتقد بأنها محسومة " ([60])

---

[58] -برتران بادي: من يحكم العالم ؟ الصفحة 18 و 19.

[59] - Bertrand Badie : Le temps Des Humiliés, Pathologie Des Relations Internationales. Editions Odile Jacob, 2014, p 196.

[60] - Bertrand Badie : op cit pp 205 – 206.

وأما دبلوماسية الانحراف وإن كان يصعب فصلها في غالب الأحيان عن الدبلوماسية السابقة إلا أنها هي التي " تتصف بالجذرية وتفيد فن الحصول على امتيازات في النظام العالمي بخرقها للقواعد والمعايير والقيم " ([61]) ولا تخلو من جرأة حد الوقاحة في بعض الأحيان.

ما يعنينا من هذه الظاهرة التي أضحت ناضحة في السياسات الدولية، هي أنه ثمة تململ واسع لدى الكثير من الدول حتى تلك الموصفة بالليبرالية لم تعد مقتنعة بكثير من المبادئ التي تم ترسيخها لسنوات طوال لضبط حركة العالم، وخصوصا أمام الدورة التأريخية الكبرى التي تم التركيز عليها مؤخرا، وهي عودة القدرة للشعوب بدلا من الحكام في تدبير الشأن العالمي، ([62]) وفرض خياراتها مما زعزع كل النظريات المعتبرة في العلاقات الدولية، وصار كما يقول المفكر بادي الوضع إلى خلط في خلاصات النظريات حتى يسهل مقاربة الظواهر الدولية.

كما لو أن معضلة " ميلوس " انقلبت رأسا على عقب محدثة قطيعة حضارية كبرى في التأريخ الإنساني، والقصة تهم حوارا مطولا تم بين قادة عسكريين أثينيين مع مستشاري جزيرة ميلوس التابعة لأرض اسبارطا، وفي هذا الحوار المطول صرح الجنرالات بما يلي: " إننا لا ندعي بأن إمبراطوريتنا مؤمنة بمجرد هزيمتنا للفرس، كما أننا لن نتركك لشأنك لكونك لم تؤذي الشعب الأثيني كما أننا لا نعتقد أن لشعب ميلوس الحق في أن يترك لشأنه، إن من يملك القوة له الحق في استعمالها، كما أن الضعيف عليه أن يقبل بشروط أصحاب القوة، إن حياد ميلوس يمكن أن يفسر على أنه ضعف وعجز أمام أولئك الذي نبسط عليهم سيطرتنا. " (63) لتضحي " نعم نتحوز القوة ونبسط سيطرتنا على بعض البلدان، لكن نعلم بأن

---

[61] - Bertrand Badie : op cit p 206.

[62] -واقعا مال برتران بادي إلى توصيف هذه الظاهرة ببداية التأريخ في كتيبه " عندما يبدأ التاريخ "
Bertrand Badie : Quand L'histoire Commence, CNRS éditions, 2012.

[63] - Michael Walzer : guerres justes et injustes argumentations éthiques avec des illustrations historiques édition Gallimard, folio essai, pp 50 et suivant.

شعب ميلوس متحوز لسلطة كبرى فإننا نلتمس منكم عدم إفشاء سر الاتفاق الذي تم بيننا حتى لا يهتز النظام العالمي بالكامل ".

فالهيراركية التي تحكم العقل الحضاري الغربي، والتي لا تتحرك مبانيه الفكرية الاستراتيجية على أساس الندية والحراك الأفقي، بل تراه حقيقة عمودية تستلزم الريادة للبعض والتابعية للباقي، بدأ يتضعضع وينقلب القهقرى نحو التوافقات.

ومن هنا يقوم الفعل التواصلي المبنائي والسياسي كإوالية الإواليات في رسم سياسة خارجية فعالة الآن وهنا.

والقائم على مجالين تبصرين في نفس الآن:

أولا، التبصر الاستراتيجي المتحرك من بين مسام الفكر الكبروي الحاكم على العالم ليحقنه بتصور ممانع يجاريه في الاتجاه دون صدام أساسي، وإن كانت ثمة معارك صغيرة تقع في التشخصات.

بمعنى أنه بدلا من التركيز على إسلامية المعارف الإنسانية، يتحول الكائن الممانع إلى خط نقدي فكري وعملاني، مدخلا تفاصيل الفكر الإسلامي كمستلزمات فكرية عقلية تتواءم مع العقل العولمي نفسه، فيكون قد قطع مرحليا مع أصل تولده دون أن يتخلى عن هويته، فبدلا من مفاهيم " الحرمة " و " الحلية " و " الكراهة " ذوات الحمولة الشرعية يستعاض عنهم بأفهومي " النقض " و " الإثبات " الوجوديان، فما يتهاتر شرعا يتهاتر عقلا، كما أنه ما ينبني شرعا ينبني عقلا.

ليتحول الخطاب العولمي الإقليمي إلى خطاب إنساني عقلاني نقدي في الصميم، يتحرك مع أشياء العالم تحت سقف العقل، ليخلق كوة معرفية كبرى تستطيع أن تناطح التصورات العولمية في حمى المشهد العالمي.

لأنه أضحى مشهدا مفتوحا على المقدرات العقلية بغض النظر عن تلويناتها الإيديولوجية.

ثانيا، التبصر الفعال الذي يتحرك وفق مدار الفاعلية الحضارية في العالم والذي لا يرتهن لا إلى سقف الإيتيقا ولا إلى سقف الأخلاق، فالمشهد العالمي يعرف تصورات كبرى متناقضة جزئيا بهذا الخصوص، وولوج الكائن الإقليمي إلى دائرة هذا الجدل لن ينضج ثمرة، بقدر ما أنه سيحافظ على معامل التميز الوجودي، طبعا لا ندعو إلى التخلي عن الأخلاق والقيم التعايشية لأنها من المكونات الهوياتية الثابتة والإسمنت المقوي لأي التحام.

فالتبصر الفعال هو وعي ذاتي بأن مدار الأمور هو مدى التأثير في المشهد العالمي، ليقوم بتحوير حركة سير التأريخ المعاصر نحو جادة الصواب، والفعالية ليست تصورا يركز في الذهن، ولا صفة يحملها المرء كما الحقيبة، بل هي استراتيجية انهمامية حتى يصير العالم " أنا " كبروية، فرؤية الأمة للعالم هي رؤية ذاتية بالضرورة.

فالسير في الأرض سير برهاني لا سعي تعلمي وحسب، ومن هنا يكون للكائن الممانع سلطة معرفية لأن يخلق تيارا وجوديا عولميا، فالجغرافيات العالمية ملئى بالتوجهات النقدية لأصل " الفكرة " العولمية كما هي مطروحة، وكما يتم صوغها في المنظمات الدولية والمنظمات الغير حكومية.

ويمكنه من جهة الفعالية الحضارية أن يلملمها تحت " إطار " موحد لخلق توازنات عولمية جديدة، بدلا من ارتهانها لأصوات ترفع هنا وهناك دون أثر فعلي.

فالتبصر الاستراتيجي يسمح للكائن الإقليمي المقاوم أن يتحرك في ملعب المستكبرين نقضا، والتبصر الفعال يسمح له بالحركة في ملعب المستضعفين تقوية.

هما جناحي حركة لا يتناسب الاستغناء عن أحدهما لفائدة الآخر، ومن هنا الأوسطية بما هي استراتيجية تقاربية للحديات الوجودية تظل نافعة، تساعد في إسقاط التموضعات الحدية لخلق تموضع جديد، وهذا عين ما أسميناه بخلق مشترك إنساني جديد.

ويمكن ابتداءا اعتماد المبادئ السبع للسياسي الصيني المحنك دينغ شياو بينغ الذي فتح الصين على العالم أو العكس فكلاهما يصح عندما أكد على ما يلي: أولا، راقب وحلل التطورات بكل هدوء، وثانيا، تعامل مع التحولات بكل أنة وبسرية تامة، وثالثا، تأمين الوضع الذاتي، ورابعا، إخفاء المقدرات الذاتية وتفادي بقع الضوء العالمية، وخامسا، عدم إثارة الانتباه، وسادسا، لا تضحي قياديا نهائيا، وسابعا، اجتهد في تحقيق الأهداف (64)، لما يسمح بتأصيل جديد للحراك العولمي.

فالمبدأ السادس لا يخلو من أهمية لأن التمدد العولمي يحتاج إلى تشاركية مطلقة بلا شرط، لا التخندق في الهرميات الناسفة لنفسها أولا، قبل أن تنسف غيرها.

والانطلاق من الأسس الثلاث من أجل فاعلية أكبر في العالم الحديث تتقوم على ثلاث: 1 – اعتماد الحكامة المبنية على الكفاءات أو ما يتوافق على تسميته MERITOCRACY للقطع مع الأنسجة الاجتماعية التي تعتمد الزبونية والعلاقات الأسرية الفوقية 2 – والسلم الأهلي لأنه الفضاء الحيوي الذي يؤدي إلى بناء الأمة كما الدولة في إطار مفتوح ومتعافي من الأزمات المتخندقة في المصلحيات الضيقة، والتي ترتئي الحراك في المستنقعات الأزموية للحفاظ على مصالحها، وخلق احتقان اجتماعي في الغالب ليس في كبير لإزاحة الأنظار على الموضع الأساسي والحيوي للخروج من الأزمات، حتى صارت

---

[64] - Kishore Mahbubani : Can asians think, Marshall Cavendish Editions, fourth edition, 2009, p 201 « (1) lengjing guancha, observe and analyse developments calmly; (2) chenzhuo yingfu, deal with changes patiently and confidently; (3) wenzhu zhenjiao, secure our own position; (4) taoguang yanghui, conceal our capabilities and avoid the limelight; (5) shanyu shouzhuo, keep a low profile; (6) juebu dangtou, never become a leader; and (7) yousuo zuowei, strive for achievements »

تأبيد الأزمات خبزا يوميا لهكذا عقليات، 3 – الصراحة بوصفها مقوم أخلاقي عالي الجودة لتدبير المشاكل والأزمات على حد سواء، دون الحفاظ على ذلك الغموض السلبي من سلوكيات اجتماعية هدامة، فلا استقرار يتأصل خارج معامل الصراحة الأخلاقية، وإلا فإن الكائن الممانع بدلا من أن يشتغل على بناء نفسه يقضي عمره في تدبير الأزمات التي تولد أخرى حتى يضيع الشوط التأريخي في صدامات بينية، في الوقت الذي تتقدم فيه دول أخرى خطوات كبيرة إلى الأمام. (65)

لذلك أضحى مهما التركيز على الهوية الناعمة والتي تسمح بحرية للحركة، بعيدا عن التشنجات المبدئية، والمتوافقة مع المبادئ السبعة المنوه إليها أعلاه.

فعندما نعيد قراءة حركة القوى العالمية في المشهد الدولي نجدها تقف على حديات استراتيجية، لكن في أغلبها الأعم تتحرك ضمن الملعب الليبرالي، بوصفه أضحى المدخل الأساسي للحراك الدولي وأيضا للفعالية على حد سواء.

حيث تحول إلى مقتضى فرضي لا يمكن تجاوزه تحت سلسلة من الجدالات الفكرية السياسية، لكنه في نفس الآن يمكن من التحرك من داخله للحفاظ على المكون الذاتي، كما لو أنها أضحت من مفارقات النشأة التي عرفها.

فالخزانة الفكرية الليبرالية تولدت من رحم الاختلافات واستدخلتها كمكونات أساسية لها، مما جعلها أقرب إلى المنظومة الفكرية ذات التناقض الذاتي، وفي نفس الوقت صاحبة تولد ذاتي، نتيجة الحركة الجدلية التي تعرفها.

ونحن في هذا المقام نود التركيز على التجربة الصينية في مرحلة " انفجارها " الريادي في العالم، ذلك أنها كدولة ماركسية الإيديولوجية حافظت على هامش مناورة قوي

---

65 - استقينا هذه المبادئ الكلية من كتاب كيشور محبوباني المشار إليه أعلاه، وخصوصا من الدراسة المعنونة ب asia's lost mellennium من الصفحة 42 إلى 45.

جدا في المشهد العالمي، كانت مدينة لتصور مفكر استراتيجي حصيف كشينغ دياوبينغ الذي ابتكر جهازين معرفيين أصيلين، سمحا للجمهورية الصينية بأسلوب مداورة فعال لإعادة تموضع الصين في الخارطة العالمية، بشكل يتوافق مع مقامها في مجلس الأمن وفي مؤسسات منظمة الأمم المتحدة، وغيرها من المكونات المؤسسية الجديدة.

ففيما يتعلق بالسياسة العامة للبلد ومن جهة توكيده على " عنصر الفعالية " كمعلمة فكرية إيديولوجية، أزاح الستار عن تصور اقتصادي استراتيجي يراه سيسمح للجمهورية الصينية بالخروج من أزمتها الخانقة إلى أن تضحي ذات شأن في اقتصاديات العالم، بأن يتم التخلص من الثقل الإيديولوجي الماركسي في مقام السياسة الخارجية وبالدخول في الملعب الليبرالي من أوسع أبوابه حيث صرح "***ليس مهما لون القط أبيض أو أسود، فإن كان يمسك الفئران فهو قط جيد*** " من جهة أنه إذا كانت الغاية هي الحفاظ على السمو الصيني ضمن أطروحته الماركسية، فيجب أن يتخلى عنها جزئيا في سقفه التداولي العالمي، حيث أضحت الليبرالية الاقتصادية الخارجية داعما للاقتصاد الماركسي الوطني.

كما أنه في إطار السعي إلى التحضير لاسترجاع هونغ كونغ و ماكاو وتايوان اللائي هن رأسماليات بالكامل ما دامت الأولى كانت تحت الانتداب البريطاني، والثانية تحت الانتداب البرتغالي، أما الثالثة فلا زالت محل نزاع بين الحكومتين، ابتكر جهازا معرفيا سنة 1978 لا زال فعالا إلى حدود الساعة وهو "***دولة واحدة ونظامين سياسيين إثنين*** " حيث سمح للجمهورية الصينية بأن تتبنى منظومتين سياسيتين في نفس الآن الأولى ماركسية شعبية في أغلبية التراب الصيني، والثانية رأسمالية اقتصادية في جغرافية هونغ كونغ وماكاو ([66])، مما جعل الانتقال يمر في انسيابية طبيعية جدا، بل حتى أنه فتح أمام الصينيين المحبذين للمنظومة الرأسمالية الطريق بالانتقال إلى هذه الجغرافيات والتخفيف من حدة التوتر المعارض داخل الحقل السياسي الصيني.

---

[66] - Zhang Qingmin : La Diplomatie Chinoise, tr Su Qiyun, China Intercontinental Press, p 42.

هناك من سيرى في هذه المناورات علامة من علامات الضعف الإيديولوجي الماركسي، وأنه إقرار ضمني بفشله، لكن الواقع هو أن قوة الماركسية الصينية هي في أنها تجيد قراءة التيارات العالمية، وتتعامل معها وفق المنطق الأسلم لتدبير الصراعات العالمية، إلى أن جعلها تتحول إلى قوة اقتصادية عالمية وثالث أقوى جيش في العالم بعد كل من الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا الاتحادية.

طبعا أتينا بهذا الأنموذج للتأكيد على أن هامش المناورة واقعا يظل مفتوحا بين يدي كل دولة غفلا عن خلفياتها الفكرية السياسية والإيديولوجية، بل ويمكن أن يشكل المائز الإيديولوجي الداخلي رافعة اقتصادية تجعل الدولة المعنية تتفوق على أصل الدول الفاعلة تأريخيا في العالم الرأسمالي أنفسهم.

مقتحمة اللجة العالمية بمنطق تذاوتي خاص يساعدها في التأقلم وحرية الحركة، حتى لو كانت ضدية في العمق.

خطوة إفراسية:

الخارطة السياسية للعالم تحمل أكثر من حكاية وأكثر من قصة، ولو وضعنا مجمل الخرائط العالمية منذ عصر النهضة الأوروبية إلى تأريخه، سوف نعاين بأن تناسلا لكائنات دولتية قد حدث، وتقطيع لأوصال " المصلحة العليا " قد تجلى، مما دفع إلى إعادة تأسيس عقد سياسي دولي منبني على التفاهم البيني والتوافقات لرأب صدع هذا التفتت.

هذه حقيقة تقف بين يدي القارئ كما لو أنها حتم وجودي أو قدر سياسي نتيجة حركة التقدم والرقي الحضاري الذي عرفته الإنسانية، ويبدو أن مشروع استيلاد الدول لا زال يعيش مخاضا إلى تأريخه، لتداخل رؤى استراتيجية قد تصل حد التناقض، ورغبة في تسييل حركة الثروات الطبيعية بأشراط تتوافق مع رغبة القوى الكبرى.

فالجغرافيا لم تكن مستندا شرعيا وحسب لتدبير الفضاء العمومي الدولتي، بل هي أكثر من ذلك إنها مرتكز استراتيجي أساسي لا يشق له غبار، يمكن الاستفادة منها كثيرا لمن عرف كيف يضبط لعبة تدبير القوة في المنطقة وفي العالم على حد سواء.

ورغم أهمية الأجهزة السياسية التي تتحكم في قرارات تدبير هذه الجغرافيا كل في دائرة سيادته الوطنية، إلا أنه لهذه الأخيرة الأصالة الوجودية التي تجعلها ترتفع عن " الكائنات الدولتية " التي تعتمرها.

فعودة الجغرافيا بقوة إلى حلبة المدارسة السياسية الدولية وتدبير الصراعات الإقليمية، بعد أن كانت متحيزة في الثقافة الحربية والعسكرية، لم يكن إلا من جهة أنها الثابت الأساسي إلى جانب التأريخ، والتي يمكنها أن تساعد في قراءة الأوضاع بشكل أليق، وأكثر فعالية من غيرها من المدارسات السياسية التي تتشابك داخل الحقول السياسية المحلية.

صحيح أن دراسة الحقول السياسية والتجاذبات فيما بينها، لها أهمية لا تخفى، إلا أن ذلك سرعان ما يرميها إلى الوراء في مقام بحث التحديات الإقليمية والعالمية، إذ أنه لو كان هناك سعي لإسقاط جهاز الدولة – الأمة، فبالأحرى هناك سعي مضاعف لتهميش المشاهد السياسية المحلية، واعتبارها عنصرا عاضدا لا محوريا في الترسيمات الجيوستراتيجية.

إلى أن صارت مستدخلة في الثقافة والاقتصاد والسياسة وكل المجالات المتعلقة بكشف أسواق جديدة بالمعنى الضيق للكلمة، أو الأسواق الاستراتيجية بالمعنى الموسع للكلمة، وبالتالي بدأ التعاطي مع الجغرافيا ومحوريتها يتعاظم على غيرها من الدراسات المؤسسية والتي تغترف من الإرث الويستفالي، لتبحث عن فعالية أكبر في ظل تولد نظام عالمي جديد، يعيد النظر في كل الأثقال السياسية التي وضعتها المرحلة الاستعمارية، يقول

روبير دافيد كابلان " العولمة بحد ذاتها استبطنت مجموعة من الهيجانات الإقليمية، والمرتكزة على وعي ديني أو قومي راكزة في إطار خاص " (67)

ومن هنا حساسية المنطقة العربية، ذلك أن الاختلاف الإثني والطائفي لا يتم تدبيره ضمن الخيار العقلاني الأمثل، بقدر ما يرفع كشعارات تساعد على نشر القلاقل والأزمات، أكثر من أن يكون بناءا، واستجلاب منافع شخصية قد يدفع بالكثيرين إلى الاقتداء وركوب الموجة حتى يحافظوا على هامش من الربح الاستراتيجي، والتي تشكل جميعها أرضية خصبة للتوغل الإرهابي، فهم كتنظيمات لا يستطيعون العمل إلا في ظل فوضى سيادية، تسمح بهامش كبير من المناورة والولوج بأعداد كبيرة للسيطرة على جغرافيات قد لا تكون ذات أهمية ابتداءا، لكنها تسمح بتشكيل روافع استراتيجية قتالية لهم للمضي قدما.

وحيث إنه صار معلوما للجميع محورية الشرق الأوسط في توزيع الثروات العالمية ولو بدون مساواة، ذلك أنها كانت دائما مرصدا استراتيجيا للقوى العالمية الكبرى أو للدول ذات الدور الإقليمي المحلي، من أجل السيطرة عليها وتصريف مصالحها الوطنية في قلب هذه الجغرافيا التي تضم أكثر من دولة، مما حولها إلى مرجل سياسي دائم السخونة ودائم الاحتقان.

وواقعا لا يمكن لمنطقة الشرق الأوسط أن تكون إلا كذلك، فعندما تتحول رقعة جغرافية إلى مطمع عالمي، فإنها بالضرورة تتضرر من تداخل الاستراتيجيات العالمية، وارتسام الولاءات السياسية النقيضة في قلبها، مما يستلزم العمل على تجاوز الإطار الكولونيالي لقراءة هذه الرقعة الجغرافية ومحاولة توسيع التصور بشكل يخدمها إلى جانب دول كثيرة تتقاطع معها جغرافيا، وإخراجها من ربقة " المطمع العالمي " إلى فضاء " المطمح

---

[67] - Robert d Kaplan : la revanche de la géographie – ce que les cartes nous disent sur les conflits a venir, éditions du Toucan, 2014, « La mondialisation elle-même a engendre de nombreuses résurgences régionalistes, souvent fondées sur une conscience religieuse ou ethnique ancrée dans un cadre spécifique », p 79.

الكوني "، عن طريق تحويلها إلى رافعة استراتيجية واقتصادية ولادة ثروات في ظل الاستقرار السياسي والاستراتيجي، بما يجعل كل المتدخلين الدوليين يتراجعون خطوات، بوصفها سوقا استراتيجية ذاتية الحركة، ذاتية التولد الحضاري. وربما مع الوقت الثقل القووي يعود إلى الشرق مجددا من تحت هذه العباءة.

إلا أننا ابتداءا نود التأكيد على أن المنطقة " الإفراسية " التي نود الدفاع عنها يحدها شرقا شمالا وشرقا جنوبا كل من أفغانستان وباكستان والهند وسريلانكا وجزر المالديف، ويحدها شمالا إيران والعراق وسوريا، ويحدها جنوبا كل من سلطنة عمان واليمن، ويحدها غربا شمالا وجنوبا كل من مصر والسودان وإثيوبيا ودجيبوتي وأريتيريا والصومال، على أننا نضع فلسطين المحتلة تحت الفاعلية العملانية لا الربط الرسمي، والذي سنرجئ الحديث عنه في ورقة مستقلة. (68)

ثمة إطباق عالمي على أن الحركة الاقتصادية العالمية متوقفة على سرعة حركة النفط والغاز والتي تسيطر عليه هذه المنطقة بمعدل مرتفع جدا، والتي تتطابق مع قوتها العالمية لكنها تظل في مقام " القوة " الفلسفية ولم تنتقل إلى مرحلة ب " الفعل " الاستراتيجية، وهنا يقع أكبر انسداد استراتيجي لكثرة الفاعلين بهذه المنطقة، ذلك أن حالة التصادم البينية، تجعل الاستقواء الذاتي يصرف بين يدي سماسرة الصراع الدولي، بشكل يؤدي إلى قضم ذاتي للمقدرات فقط من أجل فرض النفس بين جغرافية مشذرة سياسيا واقتصاديا.

وهذا ما نلاحظه عيانا بين محور المقاومة ومحور الاعتدال، بالإضافة إلى دول ارتأت " النأي بالنفس " حتى تحافظ على أسلوب معيشي يكفل لها تدبير أزماتها الخاصة

---

68 - واقعا سبق للمؤرخين أن تحدثوا عن المنطقة الإفراسية، لكن وسعوا من مداها لتشمل الصين شرقا إلى المغرب غربا، حيث تكررت في كتابات هودجسون، لكن آثرنا لأسباب عملانية مراجعة مداها، لأن الثقل الجيواقتصادي حتى يكون أكثر فاعلية يحتاج إلى تضييق ابتداءا حتى يسهل اتساعه نهاية، وبهذا وجب التنويه.

بعيدا عن القضايا الكبرى. وفي ظل هذا التصادم البيني الفاوستي، تحافظ القوى الكبرى على مراكز الريادة الاستراتيجية.

دعونا نقلب التصور ونتجاوز المضائق الاستراتيجية التي ترسم يوما بيوم، ولندرس الوضع الجيواستراتيجي لهذه المنطقة بشكل متمعير، غفلا عن الانسدادات المصلحية التناقضية، ونركز على أهمية " القوة العلائقية " التي تتصلب أمام مجمل التحديات الاستراتيجية المتصورة، المتأصلة على ثلاث مقتضيات الأولى جيوسياسية والثانية جيواقتصادية والثالثة جيوثقافية، (69) مهجوسة بالجوار والتضامن والشراكة، يسمح لها بتمرير مصالحها الوطنية في انسيابية تامة، دون كثير استفزاز وفي انعدام للعراقيل إلى أقصى حد ممكن، أو تخفيض منسوب العرقلة إلى أدنى مستوياتها.

وهذه المكونات هي نفس ما يمكن أن تتشكل عليه أية إقليمية مقتدرة، صحيح أن المشهد الدولي عرف الكثير من الإقليميات والتكتلات الدولية في طول القرن المنصرم ولا زال قائما إلى تأريخه، إلا أنه لم يعرف تطابقا فقهيا في التعريف، مما حذا ببعض الباحثين إلى ضرورة تجاوز وضع تعريف محدد وحصري للإقليمية " لكي لا يؤدي ذلك إلى قصر مجال تطبيقه على دائرة ضيقة من التجمعات والتكتلات الدولية دون غيرها. ووفقا لهذا الرأي فإنه يدخل ضمن التنظيمات الإقليمية جميع أنواع التكتلات التي تقوم على مبدأ التجاور الجغرافي أو الثقافي والحضاري، أو الاقتصادي، أو حتى العسكري." (70) في حين مال

---

[69] -يرجى الرجوع إلى دراسة الأستاذ رشيد الحضيكي وخصوصا من الصفحة 298 إلى 302، ضمن بحث
Rachid El Houdaigui : La politique étrangère de Mohamed 6 ou la renaissance d'une « puissance relationelle » in Une décennie de réformes au Maroc (1999 – 2009), Centre D'études Internationales, edition Karthala, 2010.

[70] - سليمان عبد الله حربي: مفهوم النظام الدولي الإقليمي – الأصول الفكرية للمفهوم ومستويات تحليله وعلاقته بالنظام الدولي، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية الصادرة عن جامعة الكويت، الرسالة 338 الحولية 32، شتنبر 2011، الصفحة 23.

الفريق الثاني إلى لزوم ذلك حتى لا يقع خلط بينها وبين غيرها من المؤسسات الأخرى المؤثثة للتعاون الدولي.

إلا أن الحد المتيقن في التعريف هو أنه ركز على مجموعة مقومات للقول بوجود إقليمية، مع اختلاف بين سقف " التركيز " وسقف " التخفيف " في هذه المقومات التي تتأسس على البعد الجغرافي الموحد، والبعد الثقافي الحضاري، وتطابق السياسات، فكل هذه المقومات عرفت أخذا وردا من جهة محوريتها وحصرية حاكميتها في توصيف الإقليمية، وبين التخفيف من تأثيرها للقول بوجود الإقليمية من عدمها. (71)

إلا أنها ولوقوعها في طول الخط العولمي تلقت هذه المؤسسة الكثير من الضربات والهجمات، بوصفها إحدى أسباب عدم الاستقرار الدولي، رغم أن ميثاق الأمم المتحدة يقبل بوجود التكتلات الإقليمية وفاقا للمادة 52 (72)، ومع ذلك ولو في ظل هذه الهجمات التي تناسلت والتي تلقتها فكرة الإقليمية إلا أنها لم تتوقف عن الصمود والممانعة في مواجهة المد العولمي، وخصوصا أمام عدم تحقق المساواة الاقتصادية والاجتماعية مما يؤدي بالدول إلى الاحتماء بهذا الميكانيزم الأساسي، لتدبير خيراتها بشكل يكفل مصلحتها القومية.

لذلك لم يكن مستغربا أن تظهر " الإقليمية الجديدة " كعنوان مبتكر يولد في رحم الزخم العولمي نفسه، إلا أنها تظل ذات جنبة اقتصادية ومالية بالضرورة، فهي " سلسلة من الخطوات الإجرائية والسياسات التي تتبناها دول تجمعها عوامل مشتركة على المستوى الإقليمي، تعمل على إيجاد نوع من التعاون المشترك لتقوية نفوذها من خلال هذا التكتل، لضمان كيانها الذاتي تحسبا من نفوذ وسيطرة التكتلات الإقليمية الأخرى، أو في مواجهة الفاعلين الدوليين خارج نطاق الإقليم " (73)

---

[71] -سليمان عبد الله حربي: ن.م لمزيد من التوسع يرجع للبحث وخصوصا من الصفحة 24 إلى غاية 29.

[72] -عدنان السيد حسين: نظرية العلاقات الدولية، منشورات مجد طبعة 2010، الصفحة 154.

[73] -سليمان عبد الله حربي: ن.م الصفحة 29 و 30.

فالتوافقات السياسية الموحدة على أساس جغرافي أو ما يسميه الباحث باراغ خانا ب " السوق الجيوسياسية "، ووحدة الأزمة السياسية تؤدي لا محالة إلى بناء إقليمية وفق إجراءات متعددة ومساطر جزئية، تساعدها كتكتل على مواجهة السياسات الدولية الأخرى، وخصوصا الولايات المتحدة الأمريكية التي تحولت إلى ثقب أسود تجذب البضائع والأموال دون أن تقدم للخارج خدمات مساوية (74)، مما أدى إلى اتساع رقعة الغنى والفقر بين القوة العظمى Superpower ودول الجنوب، حتى صار الضيم والظلم من صفات النظام العالمي الذي تولد بعد الحرب العالمية الثانية، وازداد تجذرا بعد سقوط جدار برلين تحت مظلة " النظام العالمي الجديد ".

وأمام هكذا صدامات مصلحية في ظل غياب التوازن في القوى، عاينت الدول الضعيفة نسبيا بأنها لا يمكن أن تحافظ على مصلحتها الوطنية إلا في إطار تكتلات وأحلاف تقف في وجه مطامع الدول الأخرى، فالإقليمية ارتفعت إلى درجة المقصد الحيوي لمجموعة من الدول أمام سياسة الإركاع التي تمارسها الدول الكبرى لفائدتها الشخصية.

وهو جهد سياسي يظل مبررا في عالم لا يتقوم إلا على واحدية القوة بكل تلويناتها، فمن لا يقوم وحده اقتدارا يلزمه تكتيف جهوده مع دول أخرى تعاني من نفس الوضعية لتأتي القوة بالكثرة ووحدة التصور.

لذلك يرى الدارسون بأن نشأة النظام الدولي الإقليمي إما يقوم على أساس لا إرادي أو على أساس إرادي، حيث إن البعد اللاإرادي في النشأة يأتي من جهة تكاتف الأسباب الموضوعية التي تؤثث " إطار من التفاعلات النمطية والمكثفة المشتركة بين وحدات النظام، الأمر الذي يجعل التغيير في جزء منه يؤثر على بقية الأجزاء، مما يؤدي أو يحمل ضمنا

---

[74] - Emmanuel Todd : Après L’empire – Essai Sur La Décomposition Du Système Américain, Gallimard Folio Actuel, 2004, P : 175.

اعترافا داخليا وخارجيا بهذا النظام كنمط مميز " (75) فقيام الإقليمية على هذا المستوى تأتي بدون اتفاق مسبق بين الدول الداخلة بها، بقدر ما جاءت كثمرة لاستجماع شروطها ووحدة التحدي الذي تمر به، بخلاف البعد الإرادي حيث المقصد يكون قائما خلال مرحلة التأسيس، ذلك أن إنشاء " منظمات إقليمية هو تعبير عن واقع مادي وحضاري، وعن روابط جغرافية وثقافية، وعن مصالح مشتركة " (76)

وللإقليمية فوائد أساسية لا يمكن تجاهلها وأدوار لا يمكن إنكارها فهي تعطي الشرعية الإقليمية لمواقف وسياسات معينة في الإطار الدولي أو الإطار الإقليمي، كما تمنح إمكانية إبراز الشخصية المميزة والدور الهام على المستوى الدولي للهوية التي تمثلها المنظمة (77) لأنها انضواء مجموعة من الدول حتى لو كانت ضعيفة تحت إطار المنظمة الإقليمية، يساعدها في رسم معالم هوية كلية تقف في وجه صدام الهويات التي تحكم المشهد الدولي.

فأهمية المنظمات الإقليمية تأكدت خصوصا بعد صدور بيان عن مجلس الأمن بتأريخ 31 يناير 1992 الذي دعا إلى الأخذ بالاعتبار دورها بما يتفق مع الفصل السابع من الميثاق لمساعدة مجلس الأمن في أعماله، وبالذات في المناطق التي يصعب وصول الأمم المتحدة إليها. (78)

إلا أن المنطقة الإفراسية يمكنها ابتداءا أن تعتمد مرحليا المقابل الفعلي للإقليمية الجديدة دون البحث عن خلق مؤسسات لهذا الغرض، ما دامت الاحتقانات السياسية لا زالت مرتفعة ولم تبرد بعد، لأنها أولا لا تستجلب انضباطا لمؤسسات قد تتناقض والمصلحة الوطنية، كما أنها تكفل لها حرية الحركة من أجل رفع اقتصادي وسياسي مثالي. ومن جهة

---

[75] - سليمان عبد الله حربي: ن.م الصفحة 66.

[76] - عدنان السيد حسين: ن.م الصفحة 155.

[77] - ناصيف يوسف حتي: النظرية في العلاقات الدولية، دار الكتاب العربي، سنة 1985، لمراجعة باقي الأدوار والأهداف يراجع الكتاب وخصوصا من الصفحة 262 إلى 264.

[78] - عدنان السيد حسين: ن.م الصفحة 157.

ثانية أنها تشتغل على رسم أرضية توافقية في العمق، ليس بإدامة التعاون الإقليمي وحسب، بل أنها تضع على الأرض متحولات اقتصادية ومالية ضخمة، تدفع حتى بالدول الغير المنضبطة والرافعة لشعار الاحتقان، تخمد أمام علو " المصلحة الاقتصادية " لتتراجع خطوات إلى الوراء في مشروعها العدائي الذي تشتغل عليه، لأن الرفاه الاقتصادي له جاذبة تتجاوز كل المضائق الإيديولوجية والإثنية والدينية على حد سواء.

فالسيادة الوطنية التي يتم تعريفها على أنها قدرة الدولة الوطنية على تدبير سياستها باقتدار سواء على المستوى الوطني أو الدولي في إطار من الحرية والاستقلال، فالوجه الداخلي للسيادة " تفيد فيه سيادة الدولة الداخلية تحديدها لنظامها بنفسها وسيطرتها على مواردها وسكانها، وعدم وجود سلطة أسمى من سلطتها، واحتكارها لسلطة الإكراه وللقوة المسلحة دون سائر المجموعات المتواجدة على إقليمهامن عائلات وأحاب ونقابات. " والوجه الخارجي " تعني فيه سيادة الدولة الخارجية عدم خضوعها لسلطة خارجية تحد من استقلالها (بالاستعمار أو الانتداب أو الحماية أو الوصاية) وإبرامها لمعاهدات متكافئة برضاها " (79)

صحيح أن ثمة ضوابط قانونية دولية تؤدي واقعا إلى تقييد السيادة الوطنية لكن ثمة توجه فلسفي قانوني يريد أن يسقط هذه السيادة لفائدة مبدأ حق التدخل ولو في أكثر أشكاله عنفا، على الخصوص بعد سقوط جدار برلين وتفكك الاتحاد السوفياتي، والذي سمح بظهور انتفاخ إيديولوجي ليبرالي على المشهد العالمي، والسعي إلى إعادة توضيب معالم كل البنى القانونية الدولية، تسمح بتسييل المجهود العولمي، والتي قد لا تتطابق مع تكثر السيادات الدولتية، قد تضحي مناسبة تأريخية لإعادة النظر في مقوم تسييل السيادة الوطنية بما يحقق نجاحات إقليمية باهرة.

---

[79] - محمد معتصم: مختصر النظرية العامة للقانون الدستوري والمؤسسات السياسية، منشورات إيزيس، الطبعة الأولى سنة 1992، الصفحة 34.

وهذا الجهد المعرفي المتناسل في السياسة الدولية، جاء ثمرة تصور دافع عنه الباحث كينيشي أوهماي في كتابه " نهاية الأمة الدولة وانبعاث الجهوية الاقتصادية " حيث خلص إلى أن التشابك الاقتصادي العالمي أخذ يتجاوز حد السيادة الدولتية حيث أنه كفاعل بدأ يفقد آلية التحكم والسيطرة في حركة البضائع والأموال، وبدأت هذه الأخيرة هي التي تتحكم في حركتها الذاتية وتتخذ القرارات المناسبة غفلا عن الإرادة الوطنية.

بل أن المصلحة الوطنية والسيادة الوطنية أضحيا أكبر عائق اقتصادي يمكن أن تواجهه ثقافة السوق الحر، حيث مجمل الكتاب جاء استدلالا على هذه القاعدة، إذ يقول بأننا سنسعى إلى " إثبات لماذا أن الأمة الدولة بمعناها الكلاسيكي أضحت غير طبيعية، ومستحيلة في نفس الآن، أمام الاقتصاد العولمي، ولماذا الدول الجهوية واقعا هي الأكثر كفاءة، والأكثر فعالية في هذا المجال "، (80) وعاد ليؤكد نفس المقتضى في كتابه " المرحلة الآتية للعولمة " بأن وضع تفسيرا أكثر دقة لمقصده من الدولة الجهوية، حيث جعلها الدول التي تركز على جهويات موسعة داخلها، سامحة بهامش تعاقدي دولي يتجاوز المركزية الإدارية والسياسية في نفس الآن، مركزا على اليابان والهند والصين كنماذج جديدة، وناجحة كفاعلين أساسيين في حركة الاقتصاد العالمي، كما أضحت تتقوم من خلال قواعد السوق الحر. (81)

وطبعا هكذا جهد استتبع آراءا متضاربة بين المتمسكة بهامش فعالية للسيادة الوطنية، وبين القائلة بالزوال الكلي للسيادة الدولتية، من جهة لمن الأولوية في التعاطي هل هي للدولة بوصفها فاعل دولي مركزي سواء في ظل المدرسة الواقعية أو الواقعية الجديدة أو حتى البنائية، أو الأولوية إلى إيديولوجية السوق الحر كما تتبناها المدرسة الليبرالية والليبرالية الجديدة، ويسعى كل تيار إلى الاستدلال على صحة موقفه التنظيري والتشخيصي لدائرة

---

[80] - Kenichi Ohmae : End of Nation State, the rise of regional economies, Harper Collins Publishers, 1996, p, 5.

[81] - Kenichi Ohmae : The Next Global Stage, Challenges and Opportunities in Our Borderless World, Wharton school publishing, 2005, chapter four.

الفعالية لمن تعود، يقول الباحث المغربي سعيد الصديقي " إن ظاهرة العولمة أخضعت هذا المفهوم (السيادة) وغيره من المفاهيم الرئيسية في علم السياسة للمراجعة وإعادة التعريف، فأصبحنا نعاصر موجة من الكتابات التي تشكك في المفهوم التقليدي للسيادة الوطنية القائم على نموذج الدولة التي تراقب بشكل مستقل شكل ومضمون سياستها العامة، وتعتبره إما مفهوما مهجورا، أو أنه ينتمي إلى تقليد مذهبي في طريق الفناء، وإما متجاوز نظريا وغير نافع عمليا، لأن الرهانات الدولية الجديدة والمشكلات غير المسبوقة والحدود الاقتصادية والجمركية التي رسمتها تحولات العولمة لا تتوافق مع الحدود السياسية التي يقوم عليها المفهوم التقليدي للسيادة. " (82) مما يفرض عليها إعادة النظر في أولوياتها الحديثة في ظل هذه المتغيرات حتى تحافظ على مكانتها كفاعل محلي ودولي.

وهو سؤال محوري وتحدي أساسي، يستلزم معه إعادة النظر في كل المداميك الدولتية من جهة ناظميتها للشأن الوطني، وتدبيريتها للشأن الدولي، بالتركيز على مديات السلطة وأفق التأقلم مع الأوضاع العالمية، باستدخال رؤى قانونية جديدة تغوص في عمق فلسفة الدولة – الأمة، وتناقش أشراط بقائها ولو بعد اضمحلال المرحلة الويستفالية فعليا.

ويبدو أن المفهوم السياسي القائم على الجهويات الاقتصادية إحدى أهم المفاصل السياسية والنظرية التي يمكن أن تفتح ورشا إقليما موسعا، لمدارسة مديات حيوية يمكن أن تولد، بشرط أن نخرج من خانة التوصيف والقراءة الداعمة، ونهتم أكثر بالتأصيل النظري بوصفها مبنى فكري تدبيري مستحدث له آثار وطنية ودولية في نفس الآن، واستقراء مفاعيل هكذا جهاز سياسي عندما يتوسع على الأفق السيادي المغربي، فالموضوع يستحق وله آثار فعلية على كل البنية الدولتية.

---

82 - سعيد الصديقي: هل تستطيع الدولة الوطنية أن تقاوم تحديات العولمة ؟ ضمن عمل جماعي تحت عنوان العولمة والنظام الدولي الجديد ، صادر عن مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية سنة 2010، الصفحة 119.

طبعا نحن لسنا من الذين يعتمدون الوجهة المتطرفة القائلة بزوال الدولة الوطنية وتهالك السيادة الوطنية، بل تصورنا يذهب خلاف ذلك، إلا أننا آثرنا التأكيد على أن ثمة توجه لا يتوقف عن التوسع ينظر إلى العالم من خلال ثقافة السوق الحر، وقد يحتوي مؤسسات دولية بالكامل، ويجب البناء على أسوأ السيناريوهات لتركيز تصور اقتداري يؤدي إلى تحصين السيادة الوطنية وفق أقصى المقادير الممكنة في ظل المتحولات العالمية، بالقيام بمراجعات في العمق لمباني " المصلحة الوطنية العليا " و " مديات السلطة " وغيرها من المفاهيم التأسيسية للجغرافيا.

فالدولة – الأمة التي لا تحمل وعيا اقتصاديا تدبيريا لثرواتها الطبيعية بالبحث عن الأسواق العالمية الأكثر كفاءة، والتي لا تهتم إلى التمكن من دور إقليمي، فإنها حتما ستكون ضحية قراصنة السوق العالمي، ومطامح دول الجوار، خصوصا أن ثقافة الواقعية عادت بقوة في ظل منظومة الإمبراطورية الأمريكية التي بدأت تتسيد على العالم بعد الحرب العالمية الثانية، وإن كان دورها ينحصر تدريجيا أمام ما أسماه المفكر الاستراتيجي باراغ خانا بظهور " العالم الثاني " وصعود مقدرة دول البريكس إلى جانب ارتفاع مطامح مجموعة من الدول الكبرى لقيادة العالم جنبا إلى جنب مع الولايات المتحدة الأمريكية.

فكل هذه المتحولات التي بدأت تكسو المشهد العالمي ارتكزت على معطيين أساسيين: التنمية الاقتصادية، وتصاعد الدور الإقليمي.

وخصوصية هذين البعدين – بغض النظر عن الدخول في التفاصيل – أنها لا تكفل الرفاه والتحكم في المحيط الخارجي بالشكل الذي يحمي المصلحة الوطنية فقط، بل أنها يمكن أن تتحقق وفق منطق المصافقة، لأن النشاط التجاري وفرض " الدور" في المنطقة لا يستلزم الخوض في الصراعات، بقدر ما يرتكز على ذهنية استراتيجية اقتصادية عميقة وطموح يتم تدبيره بضمان توزيع للمنتوجات الوطنية في العالم الذي يظل بطبيعته منفتحا.

بتوسط قراءة دقيقة لحاجيات الدول في العالم، والتخلص من منطق القطبية الواحدة التي بدأت تندثر واقعا، فكلما سعت الدولة إلى فتح بصرها على مجمل دول العالم، إلا وتكتشف بأن ثمة أسواق اقتصادية جديدة يمكنها من تصدير منتجاتها بنتائج اقتصادية أكثر نفعا وأبعد أثرا، مما يحول الثروات الطبيعية إلى مرتكز استراتيجي أساسي يساعد في دعم المقصد الدولتي في بناء ذاته.

فضلا على أن منطق المصافقة يفتح بابا جديدا في الفعل التواصلي، ذلك أنها لا تظل مدخولة بالإيديولوجية الحاكمة للدولة، بقدر ما ترتهن إلى سقف التوافق العولمي مما يفتح الباب واسعا لمكنة تمرير الفاعلية الدولتية دون وقوف انسدادات أساسية أمامها، بوصفها معامل مناورة لإيجاد تراضي ما في العملية الإنمائية إن إقليميا أو دوليا.

فالعالم أضحى فضاءا أكثر انفتاحا من ذي قبل، ويسمح بحرية حركة معرفية واقتصادية وانسانية لم يشهد لها التأريخ سابقة، وهذه فرصة ذهبية لكي تضطلع دول المنطقة بدورها البناء في الفعل التشاركي العالمي، إن استجمعت أشراط ما سبق طرحه في متن هذا البحث.

ذلك أنه عندما نعود إلى الدول التي تدخل في رحم هذه الجغرافيا الكبروية نكتشف بأنها جميعها أعضاء في أوفاق اقتصادية ومالية وتجارية متكثرة، تستدخل باقي الدول الأعضاء الخارج الترسيمة الجغرافية.

وهي فرصة مناسبة للاستفادة من شبكة التعالقات الاقتصادية الأكثر اتساعا، تجعلها رافعة اقتصادية ذاتية مرتكزة على روافع اقتصادية أكثر اتساعا، يسمح لها بتولد عولمة اقتصادية جديدة تنضم إلى مقام التأثير الأكثر فعالية في المشهد العالمي.

فثمة استدخال لاتفاقية " آسيان " ولاتفاقية " شنغهاي " بوصفهما أقوى الاتفاقيات الاقتصادية التي تنفتح باقتدار على هامش التنافس العالمي، من الناحية الشرقية العالمية،

كما أنها تفتح المنطقة الأوراسية ومجموعة البريكس شمالا وغربا وجنوبا، فضلا على الأوفاق الاقتصادية الأكثر شمولية.

مما يجعلها كإقليمية جديدة تستطيع أن تستدخل كل المزايا الاقتصادية بتعقلن ذاتي أكثر، يسمح لهذه الدول بإعادة ارتكاز جديد في المشهد العالمي، دون أن ننسى العمق العربي نحو شمال إفريقيا بوصفه الممر الإلزامي في البحر الأبيض المتوسط.

خاتمـة:

حاولنا في هذه الورقة المقتضبة أن نمسك بحكمة الحركة في العالم في أفق بناء عولمة مقاومة، تأكل من قدرات القوى الاستكبارية التي بدأت تعي وهنها وقرب سقوطها إن لم تتدارك الأمر بالاقتيات على المستضعفين تحت نير التقسيم والتفتيت.

عبد العالي العبدوني

باحث في الشؤون الاستراتيجية